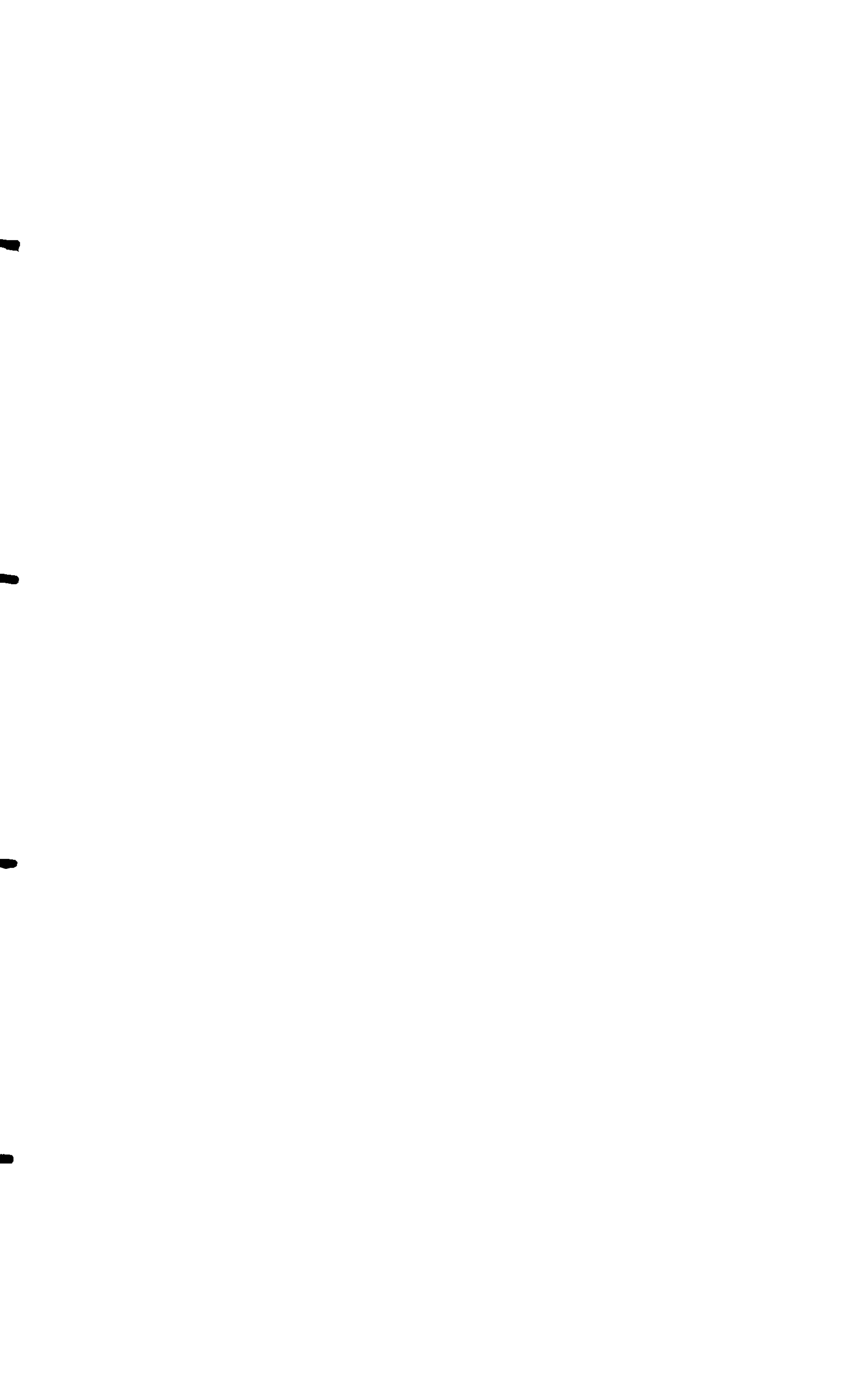
صفات المنافقين قبيل الحروب كما جاءت في القرآن الكريم

د. مديحة بنت إبراهيم بن عبدالله السدحان
قسم الدراسات الإسلامية - كلية التربية للبنات بالرياض

ملخص البحث :

يتأكد في هذا الزمان الاهتمام بصفات المنافقين لأمور منها : ما تمر به الأمة اليوم من أخطار وحروب وما يعصف بها من أحداث وفتن كقطع الليل يعمى الإنسان فيها أن يسمع ويرى الحق إذا لم يكن معه علم شرعي يخرج منه بفقه ما ينبغي عليه عمله. علو أهل الباطل في كثير من المجالات السياسية والاقتصادية والعسكرية مما يسهل دخول كثير من المنافقين ضمن جند المسلمين. التقدم التقني الهائل والسريع الذي يساعد الخائن ويسهل أمره. سذاجة بعض المؤمنين، وسرعة تقييمهم للأشخاص بمجرد ما يرونه من ظاهرهم . ولهذا رأيت أن الكتابة في هذا الموضوع من أهم المهمات، وقد جاء البحث في فصلين: الفصل الأول: تعريف النفاق، وأنواعه، وخطورته، وأشهر صفات المنافقين إجمالاً، وفيه أربعة مباحث، الفصل الثاني : صفات المنافقين قبيل الحروب وفيه أربعة عشر مبحثًا . وقد انتهى البحث إلى العديد من النتائج من أهمها : بيان خطورة النفاق، والتحذير منه. أهمية أخذ العبرة من التاريخ ففيه بيان كيد هؤلاء المنافقين، وتعاونهم مع أعداء المسلمين وكثرة هذه الوقائع تدل على كثرة من يغتر بهم من المسلمين. تحذير قادة المسلمين، وقادة جيوشهم في كل زمان ومكان من المنافقين، ولو كان من سبقنا يعلم كيد المنافقين الذي حل بهم، ما قربوهم ولا تابعوهم، والحكمة تستدعي أخذ العظة من التاريخ. وضوح صفات المنافقين أزمنة الحروب، وهذا من رحمة الله سبحانه، فالحاجة لمعرفتهم في أزمنة الحروب تشتد ليحذر منهم تحقيقًا لمصلحة البلاد والعباد.



مقدمة :

إن الحمد لله نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدًا عبده ورسوله ﷺ وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا.

أما بعد:

فقد أرسل الله رسوله محمدًا ﷺ إلينا فانقسم الناس تجاه دعوته إلى ثلاثة أقسام: مؤمن به، وكافر معاند، ومنافق آمن بلسانه وكفر بقلبه، فهو يتظاهر بالإسلام لكن أقواله وأعماله تضاد الإسلام وأحكامه.

وهذا الصنف الثالث هو العدو الحقيقي الذي حذرنا الله منه قال تعالى: ﴿ هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ ﴾[1]، فحصر العداوة فيهم لبيان أولويتهم في هذه العداوة، ولهذا وجب على المسلمين جميعًا أن يجعلوهم أول اهتماماتهم، وأن يعلموا أن من أعظم الواجبات عليهم مجاهدتهم؛ لأنهم أخطر مصيبة حلت بالمسلمين قديمًا وحديثًا، والمتأمل للتاريخ يجد للمنافقين دورًا خطيرًا في كل عصر من عصوره خاصة في أزمنة الحروب؛ فخياناتهم وتعاونهم مع أعداء المسلمين المحاربين يشهد لها التاريخ، وسنة الله ماضية في استمرار الحروب بين أهل الحق والباطل، قال تعالى: ﴿ وَلَا يَزَالُونَ يُقَـٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَـٰعُوا۟ ﴾[2]، فأعداء الله لا يألون جهدًا في حرب الإسلام وأهله، وأمة الإسلام وبفضل الله لم تزل وستستمر بحول الله في مدافعة ما يكاد لها مما يخططه أعداؤها ومن يوالونهم من المنافقين، لكن طبيعة عمل هؤلاء المنافقين وهو الخيانة يستلزم التخفي

---

(١) سورة المنافقون، الآية (٤).

(٢) سورة البقرة، الآية (٢١٧).

والتستر فهم يفسدون سرًا ويظهرون الإسلام والإصلاح، ولهم براعة في الكلام إن يقولوا تسمع لقولهم، لهذا كان من الواجب التحذير منهم وكشف أستارهم، وبيان صفاتهم حتى يُعرفوا بها، وبخاصة تلك الصفات التي يعرف بها عقائدهم ونفاقهم قبيل الحروب، ليتم الحذر منهم قبل مقابلة الأعداء فإنهم قوم سوء، لا يقام لهم وزن، ولا يحسب لهم حساب، بل إنهم قوة في جانب الأعداء. ولطول الموضوع وتشعبه اكتفيت بما ورد في ذلك في القرآن الكريم لأهميته وتأكد الاعتناء به.

وفي هذا الزمن يتأكد الاهتمام بصفات المنافقين لأمور منها:

١- ما تمر به الأمة اليوم من أخطار وحروب وما يعصف بها من أحداث وفتن كقطع الليل يعمى الإنسان فيها أن يسمع ويرى الحق إذا لم يكن معه علم شرعي يخرج منه بفقه ما ينبغي عليه عمله ويأخذ العبر والعظات من التاريخ.

٢- علو أهل الباطل في كثير من المجالات السياسية والاقتصادية والعسكرية مما يسهل دخول كثير من المنافقين ضمن جند المسلمين.

٣- التقدم التقني الهائل والسريع الذي يساعد الخائن ويسهل أمره والأعين قلما تراقبه.

٤- سذاجة بعض المؤمنين، وسرعة تقييمهم للأشخاص بمجرد ما يرونه من ظاهرهم.

ولهذا رأيت أن الكتابة في هذا الموضوع من أهم المهمات، أسأل الله أن يجعلني ممن تفقه في دينه لينذر قومه لعلهم يحذرون، وحسب علمي فإني لم أجد أحدًا كتب في هذا الموضوع بهذه الصورة وأفرده مع شدة الحاجة إليه.

خطة البحث:

أتبعت هذه المقدمة بتقسيم البحث إلى فصلين، وخاتمة.

الفصل الأول: تعريف النفاق، وأنواعه، وخطورته، وأشهر صفات المنافقين إجمالاً، وفيه أربعة مباحث هي:

المبحث الأول: تعريف النفاق لغة واصطلاحًا.

المبحث الثاني: أنواع النفاق.

المبحث الثالث: خطورة النفاق.

المبحث الرابع: أشهر صفات المنافقين إجمالاً.

الفصل الثاني: صفات المنافقين قبيل الحروب وفيه أربعة عشر مبحثًا هي:

المبحث الأول: كراهية الجهاد وظهور عبارات التذمر من الإلزام به.

المبحث الثاني: التخلف عن الجهاد بإذن، أو بدون إذن.

المبحث الثالث: تخذيل المسلمين عن القتال وتثبيطهم.

المبحث الرابع: الخوف والهلع عند ذكر نية القتال، وظهور علاماته عليهم.

المبحث الخامس: ادعاء الطاعة عند الأمر بالقتال مع العمل بخلافها.

المبحث السادس: الرغبة في الخروج مع المسلمين إن علموا أن القتال يسير طمعًا في الغنيمة.

المبحث السابع: سوء الظن بالله.

المبحث الثامن: توقع انتصار الكفار وهلاك المسلمين، وانتظار ذلك.

المبحث التاسع: لمز المؤمنين والاستهزاء بهم وبما يعدونه للقتال من نفقة.

المبحث العاشر: إفشاء أسرار المؤمنين الحربية.

المبحث الحادي عشر: إثارة القلاقل والخصومات بين أفراد الجيش.

المبحث الثاني عشر: عدم الاستعداد للخروج للقتال.

المبحث الثالث عشر: الشح والبخل بالأموال والأنفس والممتلكات، ومنع المسلمين من الاستفادة منها.

المبحث الرابع عشر: موالاة الكفار عامة، واليهود خاصة، ومحبتهم والمسارعة فيهم.

الخاتمة: وفيها أهم ما توصلت إليه من نتائج.

هذا وأسأل الله أن يؤلف بين قلوب المؤمنين ويجعلهم يدًا واحدة على عدوهم، وأن يجعل عملي خالصًا لوجهه الكريم إنه سميع مجيب.

* * *

الفصل الأول : تعريف النفاق ، وأنواعه ، وخطورته ، وأسبابه ، وأشهر صفات المنافقين إجمالاً :

وفيه أربعة مباحث هي :

المبحث الأول : تعريف النفاق لغةً واصطلاحًا :

النفاق في اللغة :

النفاق فعل المنافق يقال : نافق ينافق منافقة ونفاقًا ، أما أصله فقد اختلف فيه على قولين ، فقيل : إنه مأخوذ من النفق ؛ لأن المنافق يستر كفره ، فهو كمن يدخل النفق يستتر فيه.

وقيل : إنه مأخوذ من نافقاء اليربوع أي جحره ، فإنه يخرق الأرض حتى إذا كاد أن يبلغ ظاهر الأرض ترك قشرة رقيقة حتى لا يعرف مكان هذا المخرج ، فإذا رابه ريب دفع تلك القشرة برأسه فخرج ، ومنه اشتقاق النفاق لأن صاحبه يكتم خلاف ما يظهر ، فكأن الإيمان يخرج منه ، أو يخرج هو من الإيمان في خفاء. وظاهر جحر اليربوع تراب كالأرض وهو في الحقيقة جفرة. وكذلك المنافق ظاهره إيمان وباطنه كفر[1].

النفاق في الاصطلاح :

هو ستر الكفر وإظهار الإسلام.

وقد يسمى المنافق زنديقًا كما يفعله بعض الفقهاء[2] ، وقد يسمى النفاق الاعتقادي وهو النفاق الأكبر كما سيأتي.

---

(١) انظر : معجم مقاييس اللغة لابن فارس (٥/٤٥٤ و٤٥٥ ، والنهاية لابن الأثير (٥/٩٨) ، ولسان العرب (٨/٤٥٠٨) ، والقاموس المحيط للفيروز آبادي (١١٩٦) مادة (نفق).

(٢) انظر : الإيمان الأوسط لابن تيمية ضمن مجموع الفتاوى (٧/٤٧١) ، وطريق الهجرتين لابن القيم (٣٧٤).

المبحث الثاني: أنواع النفاق:

ينقسم النفاق إلى قسمين:

أحدهما: النفاق الأكبر، وهو النفاق الاعتقادي، أي في أصل الدين، وهو مخرج من الإسلام، وصاحبه في الدرك الأسفل من النار، وعامة الآيات القرآنية يقصد بها هذا المعنى[1].

والثاني: النفاق الأصغر، وهو النفاق العملي أي النفاق في فروع الدين، وهو دون الكفر، لكنه اختلاف بين السريرة والعلانية[2]، فمن أظهر أنه صادق أو موفٍ أو أمين وأبطن الكذب والغدر والخيانة ونحو ذلك، فهذا هو النفاق الأصغر الذي يكون صاحبه فاسقًا، لا يبطن في قلبه كفرًا وشكًا وتكذيبًا يخفيه عن الناس، ويظهر إسلامًا لا حقيقة له. وهذا النوع من النفاق جاءت به السنة. والأصل فيه ما ثبت في الصحيحين من حديث عبدالله بن عمرو وأبي هريرة وغيرهما من الصحابة - ﷺ - في ذكر آية المنافق فعن أبي هريرة - ﷺ - عن النبي ﷺ أنه قال: «آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا ائتمن خان»[3].

وعن عبدالله بن عمرو -رضي الله عنهما- أن النبي ﷺ قال: «أربع من كن فيه كان منافقًا خالصًا ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها: إذا ائتمن خان، وإذا حدث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر»[4].

---

(١) انظر: النفاق وأثره، د. عادل الشدي ص(٤٦).

(٢) أشار إلى هذا الاختلاف في أنواع النفاق أبوبكر بن العربي في أحكام القرآن (٢/٩٨٣)، وابن تيمية في مجموع الفتاوى (٥٢٤/٧)، و(١١/١٤٠ و١٤٣)، وابن القيم في مدارج السالكين (١/٣٧٦)، وابن رجب في جامع العلوم والحكم (٣٧٥)، وابن حجر في فتح الباري (١/٨٩)، وهو مروي عن الحسن البصري ذكر ذلك الترمذي في سننه، كتاب الإيمان (٥/٢٠).

(٣) رواه البخاري في كتاب الإيمان (١/٨٩)، ومسلم في كتاب الإيمان (١/٧٨) رقم (٥٩).

(٤) رواه البخاري في الإيمان (١/٨٩)، ومسلم في الإيمان (١/٧٨)، رقم (٥٨).

فهذه كلها أعمال إذا كان فاعلها مؤمنًا بالله وحده قد سلم اعتقاده مما يخرجه من الدين فنفاقه نفاق أصغر، وهذه الخصال قد توجد في المسلم الصادق الذي ليس فيه شك. قال النووي -رحمه الله- (ت٦٧٦هـ) عند شرح هذا الحديث: « وقد أجمع العلماء على أن من كان مصدقًا بقلبه ولسانه وفعل هذه الخصال لا يحكم عليه بكفر ولا هو منافق يخلد في النار فإن إخوة يوسف -عليه السلام- جمعوا هذه الخصال »[١]، وهذا النفاق الأصغر هو النفاق الذي كان يخافه السلف على نفوسهم[٢].

قال ابن أبي مليكة[٣]: أدركت ثلاثين من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم كلهم يخاف النفاق على نفسه[٤]، قال ابن حجر (ت٨٥٢هـ): « والصحابة الذين أدركهم ابن أبي مليكة من أجلهم عائشة وأختها أسماء وأم سلمة والعبادلة الأربعة وأبوهريرة...، وقد أدرك بالسن جماعة أجل من هؤلاء كعلي بن أبي طالب وسعد بن أبي وقاص. وقد جزم بأنهم كانوا يخافون النفاق في الأعمال ولم ينقل عن غيرهم خلاف ذلك، فكأنه إجماع، ولا يلزم من خوفهم من ذلك وقوعه منهم، بل ذلك على سبيل المبالغة منهم في الورع والتقوى -رضي الله عنهم- »[٥].

فخوفهم كان من النفاق الأصغر لا الأكبر، لأنه لا يعقل أن يكون النفاق الذي خافه أولئك الصحابة هو إبطان الكفر، فإنهم يعلمون من أنفسهم أنهم لا يبطنون كفرًا، وقد

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووي (٢/٤٦ و٤٧).

(٢) مجموع الفتاوى لابن تيمية (٧/٤٢٨)، وفتح الباري (١/١١١).

(٣) هو عبدالله بن عبيدالله بن أبي مليكة مكي تابعي ثقة رأى ثمانين من الصحابة، ولاه ابن الزبير -رضي الله عنه- قضاء الطائف، وكان مؤذنًا له، من العباد الزهاد، روى عن جماعة من الصحابة وكان كثير الحديث. توفي سنة (١١٧هـ).

انظر: البداية والنهاية لابن كثير (٩/٣١٤)، وتهذيب التهذيب (٥/٣٠٦).

(٤) رواه البخاري معلقًا في صحيحه كتاب الإيمان (١/١٠٩).

(٥) فتح الباري (١/١١٠ و١١١).

زكاهم الله وأثنى عليهم فهم يعلمون براءتهم من هذا النفاق المخرج من الإسلام، فتعين أن يكون مقصودهم النفاق الأصغر.

المبحث الثالث: خطورة النفاق:

إن أكبر خطر تهددت به الأمة الإسلامية على مر العصور هو النفاق، ولذلك قال الله تعالى: ﴿ هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ ﴾[1]، والحصر في الآية لبيان أولويتهم في العداوة، ولهذا كان مصيرهم يوم القيامة أسوأ مصير في الدرك الأسفل من النار؛ لأنهم شر من الكفار الصُّرَح، فبلية المؤمنين بهم أعظم من بليتهم بالكفار المجاهرين؛ لأنهم يتخفون ولا يظهرون ما يعتقدون، يعملون في الخفاء، ويظهرون لباس الإخوان والأصدقاء فهم مستأمنون لا يحسب لهم حساب ولا يراقبون ولا يحترز منهم إلا القليل من المؤمنين، والعدو المخالط المداخل المساكن أخطر وأشد كيدًا من العدو الظاهر البعيد، فهم أخطر من الجيوش العسكرية، والانحرفات الفكرية لأن أصحابها أعداء معروفون واضحون لا يقبل كثير من الناس أقوالهم.

وقد جاء عن رسول الله ﷺ قوله: « إن أخوف ما أخاف عليكم بعدي كل منافق عليم اللسان »[2].

وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم فإن أخطر المصائب في تاريخ الأمة الإسلامية قديمًا وحديثًا عن طريق المنافقين، ولا نكاد نرى عصرًا من عصور تاريخ المسلمين إلا ونجد للمنافقين فيه دورًا خطيرًا، فقد أفسدوا عقائد كثير من الناس، والمتتبع لجذور

---

(١) سورة المنافقون، الآية (٤).

(٢) رواه أحمد (١/ ٢٢)، والفريابي في صفة النفاق ص(٥٢) رقم (٢٣ و٢٤)، وابن حبان في صحيحه (١/ ١٤٨)، والطبراني في الكبير (١٨/ ٢٣٧)، قال الهيثمي في الزوائد (١/ ١٩٢): « رواه الطبراني في الكبير والبزار ورجاله رجال الصحيح ». وذكر نحوه عن البزار وأحمد وأبي يعلى وقال: « رجاله موثقون» . وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢/ ٤٤) رقم (١٥٥٠).

الانحراف العقدي في تاريخ المسلمين يجد المنافقين وراءه، ومن أبرز الأمثلة في ذلك فرقة السبأية التي وضع أسسها المنافق اليهودي عبدالله بن سبأ الذي أظهر الإسلام في عهد عثمان بن عفان - ﷺ - وأخذ يطوف البلاد الإسلامية ينشر معتقده، وقد لبَّس على العامة في زمن كان فيه كثير من الصحابة، حتى إن بعض أتباعه هددهم عليٌّ - ﷺ - بالموت حرقًا إن لم يرجعوا عن هذه العقيدة الضالة، فأصروا وفضلوا الموت على الرجوع عن ضلالهم، وقد كان من نتيجة فتنة عبدالله بن سبأ مقتل الخليفة الثالث الراشد عثمان بن عفان - ﷺ -[1].

وكان سقوط بغداد مركز الخلافة الإسلامية العباسية عام (٦٥٦هـ) على يد المنافق الخبيث ابن العلقمي[2] الرافضي الذي تعاون مع التتار الذين قتلوا جميع من يقدرون عليه من الرجال والنساء والولدان والمشايخ والشبان حتى بلغوا مليون قتيل، وقد كان ابن العلقمي وزيرًا عند الخليفة المستعصم يظهر الولاء والنصرة، له فضل في الإنشاء والأدب لكنه كان منافقًا يضمر الحقد على الإسلام وأهله، كاتب التتار وزين لهم اجتياح بغداد، وكان ذلك بعد أن سرح الجند وصرف الجيوش عن بغداد حتى لم يبق

---

(١) انظر: الفرق بين الفرق للبغدادي (٢٢٥)، والفصل لابن حزم (٢/٢٧٤)، ومختصر منهاج السنة لابن تيمية اختصره عبدالله الغنيمان (١/١٣)، وفتح الباري (١٢/٢٧٠).

(٢) هو محمد بن محمد بن علي بن أبي طالب بن العلقمي، البغدادي، الرافضي، وزير لخليفة العباسي المستعصم بالله، وكانت دولته أربع عشرة سنة فأفشى فيها الرفض، فعارضه أهل السنة وأُكبت. فحقد عليهم، ورأى أن هولاكو ملك التتار يقصد العراق فكاتبه، وقوى عزمه على قصد بغداد عاصمة الخلافة، واجتهد في صرف الجيوش عن بغداد فلم يبق فيها إلا عشرة آلاف بعد أن كانوا مئة ألف. فدخل هولاكو بغداد فأفسدها وقتل أهلها ومنهم الخليفة المستعصم وكان سنيًا على مذهب السلف لكن فيه لين وعدم تيقظ، وأذل ابن العلقمي وأذاقه الهوان، فمات غمًا وغبنًا وحزنًا بعد هذه الحادثة بثلاثة أشهر عام ٦٥٥هـ.

انظر: سير أعلام النبلاء (٢٣/٣٦١)، والبداية والنهاية لابن كثير (١٣/١٩٦).

منهم إلا عشرة آلاف ثم أرسل إلى التتار يسهل عليهم أمر اجتياح المدينة فقدموا وحدث ما حدث[1].

والأمثلة كثيرة جدًا ولهذا كان الواجب التحذير من النفاق، وبيان صفات أهله، وكشف جهودهم في هدم الإسلام وخدمة أعدائه وموالاتهم وتنفيذ مخططاتهم.

المبحث الرابع: أشهر صفات المنافقين إجمالاً:

المنافق في حقيقته كافر يحقد على الإسلام وأهله، ويكيد لهم، ويتمنى زوال دولتهم، وقد حذرنا الله منهم، وأخذ الحذر لا يمكن إلا بمعرفة صفاتهم لأنهم لا يعلنون كفرهم ولكنهم يُعرفون بما يجري على فلتات ألسنتهم وما يظهر من أفعالهم، وقد فضحهم الله سبحانه في أكثر من موضع من كتابه، وذكر أوصافهم فعرَّاهم وأخزاهم وقد كانت عامة السور المدنية يذكر فيها المنافقون[2]. وكذلك رسوله صلى الله عليه وسلم وصفهم وحذر منهم.

وصفات المنافقين تنقسم إلى قسمين:

أولاً: صفات تظهر في زمن السلم والحرب.

ثانيًا: صفات تظهر في أزمنة الحروب.

أما الصفات التي تظهر أزمنة السلم والحرب فأشهرها ما يلي:

١- الكذب.

٢- إخلاف الوعد.

٣- خيانة الأمانة.

٤- الفجور في الخصومة.

٥- موالاة الكفار، ومعاداة المؤمنين.

---

(١) انظر: البداية والنهاية لابن كثير (١٣/ ٢٠٠ وما بعدها).

(٢) قال ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية، انظر مجموع فتاواه (٧/ ٤٦٣).

٦- الكيد للمسلمين وخداعهم.

٧- الاستهزاء بالله وبرسوله وبالمؤمنين.

٨- الأمر بالمنكر والنهي عن المعروف.

٩- إظهار الإصلاح والحرص على المصلحة العامة مع الإفساد في الأرض، ومحبة نشر الفاحشة والزنا بين المؤمنين، والاهتمام بقضايا تحرير المرأة ونحوها لهذا الغرض.

١٠- إفساد الحرث والنسل.

١١- كثرة الحلف، وعامته كذب.

١٢- التحاكم إلى القوانين الوضعية، إلا إذا علم أن حكم الشرع معه.

١٣- التكاسل عن الصلاة.

١٤- قلة ذكر الله.

١٥- الاستكبار عن قبول الحق وعدم التوبة.

١٦- اعتدادهم بأنفسهم وازدراؤهم للصالحين.

١٧- السفه وقلة العلم الشرعي.

١٨- البخل عن الصدقات.

١٩- حسن المظهر وذلاقة اللسان وزخرفة القول.

وللمنافقين صفات تظهر قبيل الحروب هي موضوع الفصل الثاني من هذا البحث، والله أعلم.

* * *

الفصل الثاني: صفات المنافقين قبيل الحروب:

وفيه أربعة عشر مبحثًا وهي:

المبحث الأول: كراهية الجهاد وظهور عبارات التذمر من الإلزام به، وظهور الفرح عليهم عند التخلف:

المنافقون فئة تجري وراء ما تظن أن الخير فيه، لكنها لا تؤمن بالله، فهي لا تعلم أين هذا الخير؟ مع المؤمنين أم مع أعدائهم الذين يحاربونهم؟ فتراهم مذبذبين لا يدرون إلى أين يذهبون إلى هؤلاء أم إلى هؤلاء، فإذا وقعت المعركة أسقط في أيديهم؛ لأنهم يحبون الحياة حبًا مفرطًا، ويكرهون الموت كرهًا مفرطًا، ولو كان الأمر إليهم لسعوا جريًا وراء الحلول السلميّة، والمفاوضات السياسية، أما خيار الحرب فلا يوضع في حساباتهم مهما كلف الأمر من المهانة وضياع الديار واحدة واحدة، وإذا كان الأمر ليس إليهم فإنهم إذا سمعوا ذكر القتال والحرب والدعوة للجهاد كرهوه وظهرت على ألسنتهم عبارات التذمر منه، وطفحت نفوسهم بالاعتراض على قضائه سبحانه الذي لا يسأل عما يفعل، وقد قصَّ الله علينا حالهم وحكى قولهم لما ألزموا بالقتال: ربنا لم كتبت علينا القتال؟ لولا أخرتنا إلى أجل قريب، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓا۟ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ۚ وَقَالُوا۟ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ ۗ قُلْ مَتَـٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧٧﴾﴾[1]،

فكراهية المنافقين للقتال آثارها تظهر على ألسنتهم، فإذا جاء الأمر بالقتال وأُلزموا به يقولون في حسرة وخوف وجزع: ربنا لما كتبت علينا القتال؟ ومن يتأمل قولهم هذا يعرف أنهم لا يعلمون مهمة هذا الدين في الأرض، فهم يخشون الموت ويريدون الحياة،

---

(١) سورة النساء، الآية (٧٧).

وكيف يكون التناسق والتلاحم بين هؤلاء، والمجاهدين بقلوب مطمئنة ثابتة ونفوس واثقة متحمسة لفضل الله؟

وقولهم لولا أخرتنا إلى أجل قريب: يعني الموت أي هلا تركتنا نموت بآجالنا[1].

وقد قال هذا القول قوم من المنافقين ابتداءً، وقيل قاله بعض المؤمنين الذين نافقوا لما فرض عليهم القتال نافقوا جبنًا وتخلفوا عن الجهاد[2].

وذهب بعض المفسرين إلى أن من قاله هم جماعة من المؤمنين لم يكونوا راسخين في العلم قالوه جبنًا وخوفًا لا اعتقادًا، ثم تابوا[3]، فالخشية خوف طبع ولم يكن لشك في الدين أو رغبة عنه ولكن نفور عن الأخطار وخوف من الموت، فالمرء مجبول على كراهية ما فيه خوف هلاكه غالبًا. والسؤال: لم كتبت علينا القتال. سؤال عن الحكمة لا على سبيل الاعتراض[4]، لكن سياق الآيات يرجح قول من قال إنها نزلت في المنافقين سواء كان نفاقهم قديمًا أم حادثًا؛ لأن الآيات التي قبلها وبعدها تتحدث عنهم، قال تعالى في الآيات التي قبلها: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾ ﴾[5]، وقوله سبحانه: ﴿ وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا ﴿٧٢﴾ ﴾[6]، وقوله في الآيات التي بعدها: ﴿ وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ

---

(١) انظر تفسير الطبري (١٧١/٥) المجلد الرابع، والبغوي (٤٥٣/١).

(٢) انظر تفسير البغوي (٤٥٥/١).

(٣) انظر تفسير الطبري (١٧١/٥)، وابن كثير (٥٢٧/١).

(٤) انظر تفسير النسفي (٢٣٧/١).

(٥) سورة النساء، الآية (٦١).

(٦) سورة النساء، الآية (٧٢).

﴿ٱلَّذِى تَقُولُ﴾[1]، وقوله ﴿فَمَا لَكُمْ فِى ٱلْمُنَـٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓا۟﴾[2].

وكل هذه الآيات نزلت في المنافقين. والمؤمن لا يليق به أن يقول لربه (لم كتبت علينا القتال) وهو يرى تسلط الكفار على المؤمنين.

والمثال الآخر على كراهية المنافقين للجهاد ما حدث يوم الحديبية[3] لما بلغ رسول الله ﷺ أن عثمان بن عفان - رضي الله عنه - قتل، قال: لئن كانوا قتلوه لأناجزهم فدعا الناس إلى البيعة فبايعوه ﷺ على القتل ولم يتخلف عن بيعة رسول الله ﷺ أحد من المسلمين حضرها إلا الجد بن قيس[4]، وكان منافقًا، قال جابر بن عبدالله - رضي الله عنه - : والله لكأني أنظر إليه لاصق بإبط ناقة رسول الله ﷺ يستتر بها من الناس، وما تخلف هذا المنافق عن البيعة إلا كراهية للقتال وتذمرًا منه[5].

وفي موضع آخر من كتاب الله يذكر سبحانه كراهية المنافقين للجهاد وفرحهم إذا تخلفوا عنه، فيقول سبحانه: ﴿فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَـٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓا۟ أَن يُجَـٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُوا۟ لَا تَنفِرُوا۟ فِى ٱلْحَرِّ ۗ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا ۚ لَّوْ كَانُوا۟ يَفْقَهُونَ ۝٨١﴾[6]، وقد نزلت هذه الآيات في المنافقين المتخلفين عن غزوة

---

(١) سورة النساء، الآية (٨١).

(٢) سورة النساء، الآية (٨٨).

(٣) الحديبية: اسم بئر بقرية سميت به قرب مكة، وفي هذا الموضع كان أمر الحديبية سنة ٦هـ. انظر السيرة لابن هشام (٣٢١/٣)، والبداية والنهاية لابن كثير (١٦٤/٤).

(٤) هو جد بن قيس الأنصاري سيد بني سلمة قبل الإسلام، كان منافقًا، تخلف عن البيعة يوم الحديبية، وعن تبوك، وقيل: إنه تاب وحسنت توبته، مات في خلافة عثمان - رضي الله عنه - .
انظر: الاستيعاب في معرفة الأصحاب لابن عبدالبر (٢٥٤/١)، والإصابة لابن حجر (٢٣٠/١).

(٥) دلائل النبوة للبيهقي (١٣٥/٤).

(٦) سورة التوبة، الآية (٨١).

تبوك[1] الذين كرهوا أن يجاهدوا في سبيل دين الله الذي شرعه لعباده لينصروه، وقعد بهم ضعف الهمة ومرض القلب، ومالوا إلى الدعة وآثروا الراحة الرخيصة على التعب والمشقة، وشحوا بأموالهم وبخلوا بها أن ينفقوها في طاعة الله، وقد كانت هذه الغزوة في زمان عسرة من الناس وجدب من البلاد وشدة من الحر حين أخرفت النخل وطابت الثمار، فعظم على بعض الناس غزو الروم وأحبوا الظلال والإقامة في المساكن والمال، وشق عليهم الخروج إلى القتال[2].

وفي سورة محمد يقول الله سبحانه: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ ۖ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴿٢٦﴾ ﴾[3].

وقد ذكر ابن جرير الطبري (ت٣١٠هـ) في تفسيره أنه يعني الذين كرهوا ما أنزل الله من الأمر بقتال أهل الشرك من المنافقين، فالقائلون هم اليهود، والذين كرهوا ما أنزل الله المنافقون[4]، وإن كان في تفسير الآية أقوال أخر والله أعلم.

المبحث الثاني: التخلف عن الجهاد بإذن أو بدون إذن:

ذكر الله هذه الصفة للمنافقين في مواضع كثيرة من كتابه يبين بها جبن هؤلاء وخورهم، وفرارهم من القتال، وحبهم للحياة وأبرز هذه الأمثلة ما فعله عبدالله بن أبي بن سلول رأس المنافقين يوم أحد[5] حين خرج مع رسول الله ﷺ فلما وصل هو

---

(١) روى ذلك الطبري في تفسيره (٢٠١/١)، المجلد السادس، وقد كانت غزوة تبوك في رجب سنة تسع من الهجرة. انظر السيرة النبوية لابن هشام (١٥٩/٤)، والبداية والنهاية لابن كثير (٢/٥).

(٢) انظر الطبري (٢٠١/٢٦) المجلد (١٣)، وأسباب النزول للواحدي (٢٤٦).

(٣) سورة محمد، الآية (٢٦).

(٤) فتح القدير للشوكاني (٣٩/٥).

(٥) غزوة أحد كانت في شوال سنة ثلاث من الهجرة. انظر السيرة النبوية لابن هشام (٦٤/٣)، والبداية والنهاية لابن كثير (٩/٤).

وأصحابه إلى مكان بين أحد والمدينة خذلوا المؤمنين وانخزل - أي انفرد- بثلث الجيش، وكان عدد المشركين يومئذٍ ثلاثة آلاف رجل، والمسلمين سبع مئة رجل[1] بعد تخلف المنافقين، ولما قال لهم عبدالله بن عمرو بن حرام: يا قوم أذكركم الله أن تخذلوا نبيكم وقومكم عند من حضر من عدوهم تعللوا قائلين: لو نعلم أنكم تقاتلون لما أسلمناكم ولكنا لا نرى أنه يكون قتال[2]، وفيهم نزل قوله تعالى: ﴿ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَـٰتِلُوا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُوا ۖ قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّٱتَّبَعْنَـٰكُمْ ۗ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَـٰنِ ۚ يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴾[3] ومعنى "أو ادفعوا": أي كثروا سواد المسلمين فإنكم إذا كثرتم دفعتم العدو إن لم يكن قتال، وقيل معناها: رابطوا إن لم تقاتلوا[4]. وقيل: قاتلوا دفعًا عن أنفسكم وأهليكم وأموالكم إن لم تقاتلوا للآخرة[5].

والمنافقون يكذبون بمقالتهم هذه: (لو نعلم قتالاً لاتبعناكم) فإنهم يعلمون أن المشركين قد جاءوا من بلادهم وتحملوا مشاق السفر وهم يحترقون على المسلمين بسبب ما أصاب أشرافهم يوم بدر، وعددهم أضعاف المسلمين، فهم يعلمون أنه كائن بينهم قتال لا محالة، ولهذا قال تعالى: ﴿ يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴾، كما ذكر سبحانه هذا التخلف عن غزوة أحد في سورة النساء في قوله

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام (٣/٧٠)، ودلائل النبوة للبيهقي (٣/٢٢٠).

(٢) ذكره ابن هشام في السيرة (٣/٦٨، ١٢٥)، وأخرجه الطبري في تفسيره (٤/١٦٨) المجلد الثالث.

(٣) سورة آل عمران، الآية (١٦٧).

(٤) انظر الطبري (٤/١٦٨) المجلد الثالث، والبغوي (١/٣٦٩)، وابن كثير (١/٤٢٦).

والرواية أخرجها الطبري في هذا الموضع، ونحوها عند إسحاق بن راهويه كما في المطالب العالية (٤/٢١٩).

(٥) تفسير النسفي (١/١٩٣).

سبحانه: ﴿ فَمَا لَكُمْ فِي ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓاْ ۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُواْ مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ ۖ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴿٨٨﴾ ﴾[1].

والآية نزلت - كما قال جمع من المفسرين- في عبدالله بن أبي ومن معه الذين انسحبوا من الجيش يوم أحد فكان أصحاب رسول الله ﷺ فرقتين، فرقة تقول: نقتلهم لأنهم منافقون، وفرقة تقول: لا نقتلهم لأنهم تكلموا بالإسلام، فنزلت الآية[2].

أما غزوة تبوك فقد شهدت تخلف كثير من المنافقين عن الخروج مع رسول الله صلى الله عليه وسلم جبنًا وإيثارًا للراحة، فجاءت آيات كثيرة في سورة التوبة تبين حال هؤلاء، يقول تعالى: ﴿ لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّٱتَّبَعُوكَ وَلَٰكِنۢ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ ٱلشُّقَّةُ ۚ وَسَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَوِ ٱسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٤٢﴾ عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٤٣﴾ لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾ ۞ وَلَوْ أَرَادُواْ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّواْ لَهُۥ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُواْ مَعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴿٤٦﴾ لَوْ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُواْ خِلَٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾ لَقَدِ ٱبْتَغَوُاْ ٱلْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُواْ لَكَ ٱلْأُمُورَ حَتَّىٰ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَهُمْ كَٰرِهُونَ ﴿٤٨﴾ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّي وَلَا

---

(١) سورة النساء، الآية (٨٨).

(٢) رواه البخاري في المغازي (٣٥٦/٧)، وفي التفسير (٢٥٦/٨)، ومسلم في كتاب صفات المنافقين (٢١٤٢/٤) رقم (٢٧٧٦).

تَفْتِنِّيٓ ۚ أَلَا فِى ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا۟ ۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٤٩﴾ إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ ۖ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا۟ قَدْ أَخَذْنَآ أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّوا۟ وَّهُمْ فَرِحُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾[1]، فقد أعلم الله نبيه في هذه الآيات بأن من علامات المنافقين التي بها يعرفون تخلفهم عن الجهاد في سبيل الله باستئذانهم رسول الله ﷺ في ترك الخروج معه إذا طلب منهم الخروج مع ما يصاحب هذا الاستئذان من المعاذير المختلقة الكاذبة.

يقول سبحانه: ﴿ لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا ﴾ أي: غنيمة حاضرة قريبة مأمونة العواقب، وسفرًا قاصدًا: أي موضعًا سهلاً قريبًا هينًا لاتبعوك وساروا معك، ولكن بعدت عليهم الشقة أي المسافة إلى تبوك، والشقة السفر البعيد سمي بذلك لأنه يشق على الإنسان، وكانت غزوة تبوك في مكان بعيد وفي زمن الصيف الحار، فلما رأى المنافقون ذلك جاءوا يحلفون أنهم لا يستطيعون الخروج، فهم معذورون لضعفهم، قال تعالى: ﴿ وَسَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَوِ ٱسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ ﴾ أي لو كان لنا سعة في الظهر والمال ﴿ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ ﴾ أي: بالكذب والنفاق، فهم كاذبون في أعذارهم؛ لأنهم كانوا يطيقون الخروج بما لديهم من مال وقوة في الأبدان، وكان بعضهم إذا أراد التخلف يأتي رسول الله ﷺ يطلب منه الإذن فلما أذن لهم رسول الله ﷺ عاتبه الله فقال: ﴿ عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ ﴾ أي عفا الله عنك ما كان منك في إذنك لهؤلاء المنافقين الذين استأذنوك في ترك الخروج معك وفي التخلف عنك من قبل أن تعلم الذين صدقوا وتعلم الكاذبين، ومعنى لم أذنت لهم: أي لأي شيء أذنت لهم، يقول سبحانه ما كان ينبغي لك أن تأذن لهم في التخلف عنك حتى تعرف من له العذر ومن لا عذر له، وحتى تعلم الصادق منهم في إظهار طاعتك من الكاذب، فإن منهم من كان مصرًا على القعود عن

---

(١) سورة التوبة، الآيات (٤٢- ٥٠).

الغزو وإن لم تأذن له فيه، وقال بعضهم: نستأذن في الجلوس، فإن أذن لنا جلسنا، وإن لم يؤذن لنا جلسنا.

وذكر البغوي (ت٥١٦هـ) عن ابن عباس - ﷺ- أنه قال: «لم يكن رسول الله ﷺ يعرف المنافقين حينئذٍ»[1]. كما ذكر ذلك القرطبي (ت٦٧١هـ) في تفسيره وزاد: وإنما عرفهم بعد نزول سورة التوبة[2]، ثم قال سبحانه: ﴿ لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ أَن يُجَـٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾ ﴾[3] أي أن علامة المنافق التخلف عن الجهاد، فلا تأذن لهم يا محمد إذا لم يكن لهم عذر فإنه لا يستأذنك في القعود ولا في الخروج إلا منافق، أما المؤمن فإنه إذا أمرته بشيء ابتدره. فكان الاستئذان في ذلك الوقت من علامات النفاق.

قال ابن عباس: هذا تعيير للمنافقين حين استأذنوا في القعود عن الجهاد من غير عذر[4].

﴿ إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾ أي الذين يستأذنون في القعود عن الجهاد من غير عذر لا يؤمنون بالله واليوم الآخر ولا يرجون ثواب الله في الآخرة على أعمالهم، وارتابت قلوبهم: أي شكّت في صحة ما جئتهم به فهم في ريبهم يترددون: أي في شكهم يذهبون ويرجعون وفي ظلمة الحيرة مترددون لا يعرفون حقًا من باطل، ثم بين سبحانه - وهو مطّلع على خفايا النفوس- حقيقة المنافقين في هذا الأمر بقوله: ﴿ وَلَوْ أَرَادُوا۟ ٱلْخُرُوجَ

---

(١) تفسير البغوي (٢/٢٩٧).

(٢) تفسير القرطبي (٨/٩٩).

(٣) سورة التوبة، الآية (٤٤).

(٤) نقل قوله ابن جرير الطبري في تفسيره (١٠/١٤٣) المجلد السادس.

﴿لَأَعَدُّواْ لَهُۥ عُدَّةً﴾ أي لو كانوا يريدون ويحبون الخروج معك للغزو لتأهبوا للسفر فتركُهم الاستعداد دليل على إرادتهم التخلف، ولكن كره الله انباعثهم أي خروجهم معك، فثبطهم: أي ثقّل عليهم الخروج حتى استخفوا القعود في منازلهم وتركوا الخروج فخذلهم الله، وإنما كان هذا التثقيل والحبس والتثبيط عن الخروج لعلم الله سبحانه بنفاقهم وغشهم للإسلام وأهله، ولأنهم لو خرجوا مع المسلمين ضروهم ولم ينفعوا، فخروجهم لمصلحة جند عدوهم.

قال تعالى: ﴿لَوْ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالاً﴾[1] أي لم يزيدوكم قوة، وإنما زادوكم فسادًا وضرًا وسعيًا بالنميمة والأراجيف، وجاء في سبب نزول هذه الآية أن رسول الله ﷺ لما أمر الناس بالجهاد في غزوة تبوك ضرب رسول الله ﷺ عسكره على ثنية الوداع، وضرب عبدالله بن أبي بن سلول على جده أسفل من ثنية الوداع ولم يكن بأقل العسكرين فلما سار رسول الله تخلف عنه عبدالله بن أبي فيمن تخلف من المنافين وأهل الريب فأنزل الله يعزي نبيه ﷺ: ﴿لَوْ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالاً﴾[2] الآيات ففي الآية تسلية للمؤمنين في تخلف المنافقين عنهم. وكان المنافقون إذا تخلفوا عن الجهاد اختلقوا لذلك أعذارًا شتى، ومن ذلك ما اعتذر به الجد بن قيس أحد رؤوس المنافقين حين تخلف من غزوة تبوك أن عذره الخوف من الافتتان بنساء الروم[3]، فهو يضع نفسه

---

(١) سورة التوبة، الآية (٤٧).

(٢) أسباب النزول للواحدي (٢٤٧)، والبغوي في تفسيره (٢/٢٩٨)، كما أشار إليه ابن هشام في السيرة النبوية (٤/١٦٢).

(٣) رواه ابن إسحاق في السيرة (٢/١٧٣) و(٤/١٥٩)، وابن جرير الطبري في تفسيره (١٠/١٥٢) المجلد السادس بإسناد ضعيف، والطبراني في الكبير (١١/٦٣) رقم (١١٠٥٣) و(١٢/١٢٢) رقم (١٢٦٥٤)، وضعفهما الهيثمي في مجمع الزوائد (٧/٣٣)، كما رواه البيهقي في دلائل النبوة (٥/٢١٣).

وعزاه السيوطي في لباب النقول ص(١١٨)، لأبي نعيم وابن مردويه وابن أبي حاتم.

في صورة الحريص على دينه الراغب في الخير وهو كاذب، قال تعالى: ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّيٓ ﴾[1].

أي إذن لي أن لا أخرج معك ولا تبتليني برؤية بنات بني الأصفر فأفتتن بصباحة وجوههن فإني بالنساء مغرم فأخرج وآثم بذلك، ولم يكن به علة إلا النفاق.

قال تعالى: ﴿ أَلَا فِي ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُواْ ﴾: أي: في الشرك والإثم والمعصية وقعوا وهو النفاق والتخلف عن النبي ﷺ قال سبحانه: ﴿ إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُواْ قَدْ أَخَذْنَآ أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّواْ وَّهُمْ فَرِحُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾[2].

أي إن تصبك غنيمة وفتح يحزنهم ذلك، وإن تصبك سيئة من قتل وهزيمة يقولوا: قد أخذنا أمرنا من قبل أي احتطنا لأنفسنا وأخذنا حذرنا بالجزم في القعود عن الغزو وترك اتباع محمد إلى عدوه، ويتولوا وهم فرحون معجبون بذلك[3].

وفي موضع آخر من سورة التوبة يبين الله سبحانه لنبيه كيفية التعامل مع هؤلاء المنافقين المتخلفين بقوله تعالى: ﴿ فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُواْ مَعِيَ أَبَدًا وَلَن تُقَـٰتِلُواْ مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَٱقْعُدُواْ مَعَ ٱلْخَـٰلِفِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾[4].

وكانت هذه الآية قد نزلت في المتخلفين عن غزوة تبوك يقول الله تعالى: فإن ردك الله يا محمد من غزوة تبوك إلى طائفة من هؤلاء المنافقين، فاستأذنوك للخروج معك في

---

(١) سورة التوبة، آية (٤٩).

(٢) سورة التوبة، آية (٥٠).

(٣) انظر: في تفسير الآية ابن جرير الطبري (١٠/١٣٧ : ١٤٩) المجلد السادس، والبغوي (٢/٢٩٧-٢٩٨)، والقرطبي (٨/٩٨ : ١٠١)، وتفسير النسفي (٢/١٢٩)، وابن كثير (٢/٣٦١ : ٣٦٣).

(٤) سورة التوبة، آية (٨٣).

غزوة أخرى فقل لهم: لن تخرجوا معي أبدًا في سفر، ولن تقاتلوا معي عدوًا في غزوة أخرى، ثم علل ذلك بقوله سبحانه: ﴿إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ وذلك في غزوة تبوك.

فاقعدوا مع الخالفين: أي مع الذين قعدوا من المنافقين لأنكم منهم واعملوا مثل عملهم فإن الله قد سخط عليكم[1].

ولم تكن الآيات لتقف عند ذلك بل جاءت آيات أخرى كثيرة تبين تخلف المنافقين عن الجهاد منها قوله تعالى: ﴿وَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ ءَامِنُوا بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ ٱسْتَـْٔذَنَكَ أُولُوا ٱلطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُن مَّعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴿٨٦﴾ رَضُوا بِأَن يَكُونُوا مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾[2].

فهذه حال المنافقين إذا قيل لهم اغزوا المشركين مع رسول الله ﷺ استأذنك ذوو الغنى والسعة والمال منهم في التخلف عن رسول الله والقعود في أهله، وقالوا ذرنا أي: دعنا نكن ممن يقعد في منزله مع ضعفاء الناس من النساء والصبيان ومرضاهم وممن لا يقدر على الخروج في السفر[3]، وسبب ذلك أنهم إذا وقعت الحرب كانوا أجبن الناس.

ثم بعد هذه الآية بقليل يأتي قوله تعالى: ﴿وَجَآءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٠﴾﴾[4].

فضح الله في هذه الآيات أهل النفاق فإنهم ليسوا مثل الأعراب أهل الأعذار الذين

---

(١) انظر: تفسير الطبري (٢٠٣/١٠) المجلد السادس، والبغوي (٣١٦/٢)، وتفسير النسفي (١٣٩/٢)، وابن كثير (٣٧٩/٢).

(٢) سورة التوبة، آية (٨٦، ٨٧).

(٣) انظر: تفسير الطبري (٢٠٧/١٠) المجلد السادس، والبغوي (٣١٨/٢)، والقرطبي (١٤٢/٨).

(٤) سورة التوبة، آية (٩٠).

جاءوا يعتذرون إلى رسول الله ﷺ بل إنهم ممن كذب الله ورسوله وقعدوا لم يأتوا إلى رسول الله ﷺ فيعتذروا، وقيل معنى الآية: وقعد آخرون من الأعراب عن المجيء للاعتذار وعن الخروج للجهاد.

﴿ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ﴾ : يعني المنافقين.

وقد أوعدهم الله بالعذاب فقال: سيصيب الذين كفروا منهم عذاب أليم[١].

ثم قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَآءُ ۚ رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٩٣﴾ ﴾[٢].

ذمهم الله سبحانه لأنهم يستأذنون ولا عذر لهم، بل هم أهل غنى وسعة، فهؤلاء إنما السبيل عليهم بالعقوبة لأنهم يستأذنون في التخلف وترك الجهاد وهم أهل قوةٍ نفاقًا، وقد رضوا بأن يجلسوا مع النساء وهن الخوالف خلفَ الرجال في البيوت ويتركوا الغزو مع رسول الله ﷺ[٣].

وفي سورة النور ذكر الله سبحانه تخلف المنافقين عن الحرب بقوله: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُواْ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُواْ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٢﴾ لَّا تَجْعَلُواْ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ۚ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ

---

(١) انظر: تفسير الطبري (١٠/٣١٨) المجلد السادس، والبغوي (٢/٢٠٩)، والقرطبي (٨/١٤٣)، وابن كثير (٢/٣٨٢).

(٢) سورة التوبة، آية (٩٣).

(٣) انظر: تفسير الطبري (١١/١) المجلد السابع، والبغوي (٢/٣١٩)، وتفسير النسفي (٢/١٤١).

يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ ﴾[(١)].

فهؤلاء المنافقون إذا كانوا مع رسول الله ﷺ يجمعهم حرب أو صلاة أو تشاور في أمر نزل ونحو ذلك انصرفوا مختفين عن رسول الله ﷺ فقال سبحانه: قد يعلم الله الذين يتسللون أي يخرجون، لواذًا: أي يستر بعضهم بعضًا ويروغ في خفية، وذلك لما فيهم من الجبن عن المواجهة والاستخفاف برسول الله ﷺ.

ومثال ذلك: ما كان يوم حفر الخندق[(٢)] حين كان المنافقون ينصرفون عن رسول الله ﷺ مختفين، وقد ذكر ابن إسحاق (ت١٥٢هـ) قصة ذلك وهي أنه لما سمع رسول ﷺ بما أجمعت عليه الأحزاب، ضَرَبَ الخندق على المدينة وعمل فيه رسول الله ﷺ ترغيبًا للمسلمين في الأجر، وعمل معه المسلمون فدأب فيه ودأبوا، وأبطأ عن رسول الله وعن المسلمين في عملهم ذلك رجال من المنافقين، وجعلوا يُورُّون أي: يستترون بالضعيف من العمل، ويتسللون إلى أهليهم بغير علم من رسول الله ﷺ ولا إذن[(٣)].

والمنافقون حين يتخلفون عن المعركة قد يعتذرون كذبًا بأن بيوتهم عورة عرضة للسراق لا أحد يحرسها، فهي بحاجة إليهم كما حدث يوم غزوة الخندق قال تعالى حاكيًا ما فعلوه: ﴿ وَيَسْتَـْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيرًا ﴿١٤﴾ ﴾[(٤)]، فقد كان بعضهم يستأذن رسول الله ﷺ في الانصراف إلى منزله وهو يريد

---

(١) سورة النور، آية (٦٢، ٦٣).

(٢) كان ذلك يوم الأحزاب عام خمس من الهجرة. انظر: البداية والنهاية لابن كثير (٤/ ٩٣).

(٣) السيرة النبوية لابن هشام (٣/ ٢٢٦ و ٢٢٧).

(٤) سورة الأحزاب، آية (١٣، ١٤).

الهرب من المعركة[1] ويتعلل بأعذار واهية كاذبة، ففي هذه الآية يذكر الله عنهم قولهم إن سبب انسحابهم من المعركة: خوفهم على بيوتهم، فإنها خالية، قصيرة الجدران، قريبة من العدو، فهم يخشون دخول السراق عليها واعتذارهم هذا سببه ما في نفوسهم من الخوف من رسول الله ﷺ يريدون رضاه.

لكن الله فضح أمرهم وكذبهم فقال: ﴿وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾ أي ما يريدون إلا الفرار ﴿وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا۟ ٱلْفِتْنَةَ لَأَتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا۟ بِهَآ إِلَّا يَسِيرًا﴾ أي: إن الكفار الذين يريدون قتالهم، وهم الأحزاب، لو دخلوا عليهم المدينة من نواحيها، ثم سألوهم أن يكفروا، لكفروا وما احتبسوا عن الفتنة إلا قليلاً، ولأسرعوا إلى الشرك طيبة به نفوسهم، وقد كان هؤلاء المنافقون عاهدوا الله قبل غزوة الخندق أن يقاتلوا مع رسول الله ﷺ قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَانُوا۟ عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَـٰرَ ۚ وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا ﴿١٥﴾﴾.

وقد ذكر الطبري في تفسيره[2]: أنهم غابوا عن غزوة بدر ورأوا ما أعطى الله أصحاب بدر من الكرامة، فقالوا: لئن أشهدنا الله قتالاً لنقاتلن، فساق الله ذلك إليهم حتى كان في ناحية المدينة.

وقيل: بل هم بنو حارثة الذين هموا يوم أحد أن يفشلوا مع بني سلمة فلما أنزل الله فيهم قوله تعالى: ﴿إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٢٢﴾﴾[3] عاهدوا الله أن لا يعودوا لمثلها[4].

---

(١) ومن هؤلاء أوس بن قيظي. وقد ذكر قصته هذه ابن هشام في السيرة (٢/١٧١)، والبيهقي في الدلائل (٣/٤٣٣ و ٤٣٥ و ٤٥٢).

(٢) تفسير الطبري (٢١/١٣٧) المجلد الحادي عشر.

(٣) سورة آل عمران، آية (١٢٢).

(٤) ذكره ابن هشام في السيرة (٣/٢٥٨)، والبغوي في تفسيره (٣/٥١٧).

ثم قال الله - ﷻ - : ﴿ قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦﴾ قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً ۚ وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧﴾ ﴾[(1)].

أي : إن الفرار لا ينفع صاحبه ، لأن من حضر أجله مات ، أو قتل كما سبق في قدر الله ، ولا ينفعكم الفرار من القتل ، ولا يزيد في آجالكم.

ولما أراد رسول الله ﷺ أن يسير إلى مكة عام الحديبية معتمرًا ، استنفر من حول المدينة من الأعراب ، وأهل البوادي ، ليخرجوا معه ، حذرًا من قريش أن يعرضوا له بحرب ، أو يصدوه عن البيت ، فأحرم بالعمرة وساق معه الهدي ، ليعلم الناس أنه لا يريد حربًا ، فتثاقل عنه كثير من الأعراب ، وقال بعضهم : أنذهب معه إلى قوم جاؤوه فقتلوا أصحابه فيقاتلهم في ديارهم ، فاعتلوا بالفشل وتخلفوا فأنزل الله فيهم هذه الآيات : ﴿ سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا ۚ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًۢا ۚ بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًۢا ﴿١١﴾ ﴾[(2)] أي : سيقول لك الذين خلفهم الله - ﷻ - عن صحبتك ﴿ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا ﴾ يعتذرون إلى رسول الله ﷺ بشغلهم ، وسألوا رسول أن يستغفر لهم ، وذلك منهم على وجه المصانعة والتقية ، لا عن عقيدة ويقين وإيمان ، ولذلك قال تعالى : ﴿ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۚ ﴾ ولذلك لا يبالون أستغفر لهم النبي ﷺ أم لا ، وهؤلاء المنافقين يظنون أن التخلف يدفع عنهم الضر

(1) سورة الأحزاب ، آية (١٦ ، ١٧).

(2) سورة الفتح ، آية (١١).

فبين لهم تعالى أنه سبحانه إن أراد بهم شيئًا من ذلك لم يقدر أحد على دفعه[1].

وباستقراء الآيات السابقة في تخلف المنافقين عن الجهاد نجد أن أعذارهم الكاذبة ترجع في جملتها إلى أحد أمور هي:

١- عدم توقع حصول قتال.

٢- عدم مناسبة زمن القتال ككونه في شدة الحر مثلاً.

٣- خوف الوقوع في الشر والفتنة بسبب القتال، كخوف الافتتان بنساء الروم إن ذهبوا لقتالهم.

٤- الضعف وعدم القدرة على الجهاد.

٥- حاجة بيوتهم إليهم لعدم وجود من يحرسها من السراق.

٦- الانشغال بالمال والأهل.

المبحث الثالث: تخذيل المسلمين عن القتال وتثبيطهم:

يتخلف المنافق لجبنه عن القتال أو ينسحب من الجيش قبل بدء المعركة ولا يكتفي بذلك، بل يتمنى أن يكون بقية الجيش مثله، فهو يخذل الجند ويثبط هممهم علهم يتركون القتال فيكونوا سواءً في التخلف قال تعالى واصفًا حال هؤلاء المنافقين: ﴿ وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا ﴿٧٢﴾ ﴾[2]، وقد وصفهم الله تعالى بأنهم من المؤمنين في قوله: ﴿ وَإِنَّ مِنكُمْ ﴾ ومعنى ذلك أنهم من قومكم، وممن يتشبه بكم، ويظهر أنه من أهل دعوتكم ودينكم، وهو منافق يبطئ من أطاع الرسول منكم عن الجهاد إذا نفرتم تقاتلون أعداء الله[3].

---

(١) انظر: تفسير الطبري (٢٦/٧٧) المجلد الثالث عشر، والبيهقي في الدلائل (٤/١٦٥)، والبغوي (٤/١٩١)، وابن كثير (٤/١٩٠)، وفتح القدير للشوكاني (٥/٤٨).

(٢) سورة النساء، آية (٧٢).

(٣) انظر: تفسير الطبري (٥/١٦٥) المجلد الرابع، وفتح القدير للشوكاني (١/٤٨٦).

قال البغوي في تفسيره في معنى يبطئن: أي يتأخرن ويتثاقلن عن الجهاد[1]. ولا مانع من كون كلا المعنيين مرادًا، فإن المنافق يتخلف عن الجهاد يتباطأ هو في نفسه، ويبطئ غيره عن الجهاد، ويثبط الناس عن الخروج.

كما ذكر الله هذه الصفة في موضع آخر من كتابه فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓاْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَٰفِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوٓاْ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[2].

بين هذه الصفة قوله في الآية: ﴿نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ﴾ ومعناها: ساعدناكم أيها الكفار في الباطن وما ألونا المؤمنين خبالاً وتخذيلاً، حتى انتصرتم عليهم وقهرتموهم، فنحن منعناكم منهم بتخذيلنا إياهم حتى امتنعوا منكم فانصرفوا، ونحن الذين دفعنا عنكم صولة المؤمنين بتخذيلهم، وبما فعلناه من مراسلتنا إياكم بأخبارهم وأمورهم، يمنون بهذا على الكافرين[3].

وفي غزوة الأحزاب كان المنافقون يحرضون الناس على التخلف عن رسول الله ﷺ قال تعالى واصفًا حالهم: ﴿وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُواْ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُواْ ٱلْفِتْنَةَ لَأٓتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُواْ بِهَآ إِلَّا يَسِيرًا ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ كَانُواْ عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَٰرَ وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا ﴿١٥﴾﴾[4].

---

(١) تفسير البغوي (٥/٤٥١).

(٢) سورة النساء، آية (١٤١).

(٣) انظر: الطبري (٥/٣٣١) المجلد الرابع، والبغوي (١/٤٩٢)، وتفسير النسفي (١/٢٥٧، ٢٥٨)، وابن كثير (١/٥٦٨).

(٤) سورة الأحزاب، الآيات (١٣، ١٤، ١٥).

وسبب نزول هذه الآيات: أنه حين نزلت الأحزاب حول المدينة كان المسلمون في غاية الجهد، فظهر حينئذ النفاق وكان المنافقون طائفتين:

الطائفة الأولى: قالت لأهل المدينة: ﴿ يَٰٓأَهۡلَ يَثۡرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمۡ فَٱرۡجِعُواْۚ ﴾ أي: يا أهل المدينة لا مكان لكم تنزلون فيه، أو لا إقامة لكم، فارجعوا، يحرضون الناس على التخلف عن رسول الله ﷺ والانسحاب من الحرب، يقولون للناس: ارجعوا أي اهربوا وفروا إلى منازلكم وبيوتكم واتركوا محمدًا ﷺ وعسكره.

والطائفة الثانية: من المنافقين تستأذن في الانسحاب من المعركة في شدتها قال تعالى: ﴿ وَيَسۡتَـٔۡذِنُ فَرِيقٞ مِّنۡهُمُ ٱلنَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوۡرَةٞ وَمَا هِيَ بِعَوۡرَةٍۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارٗا ١٣ ﴾ الآية، أي: يستأذن بعضهم رسول الله ﷺ في الانصراف إلى منزله وهو يريد الهروب من المعركة.

ثم عاد القرآن يذكر بهؤلاء المنافقين الذين لا يقاتلون ولا يريدون الناس أن تقاتل مع رسول الله فقال - ﷻ - : ﴿ قَدۡ يَعۡلَمُ ٱللَّهُ ٱلۡمُعَوِّقِينَ مِنكُمۡ وَٱلۡقَآئِلِينَ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ هَلُمَّ إِلَيۡنَاۖ وَلَا يَأۡتُونَ ٱلۡبَأۡسَ إِلَّا قَلِيلًا ١٨ ﴾[1].

أي: إنه سبحانه يعلم هؤلاء المثبطين للناس عن رسول الله ﷺ وقد روى الطبري بسنده[2] أن هؤلاء ناس من المنافقين يقولون لإخوانهم: ما محمد وأصحابه، إلا أكلة رأس، ولو كان لحمًا لالتهمهم - أي ابتلعهم - أبوسفيان وأصحابه دعوا هذا الرجل فإنه هالك.

وهؤلاء المنافقين يقولون لإخوانهم هلم إلينا: أي ارجعوا إلينا ودعوا محمدًا فلا

---

(١) سورة الأحزاب، آية (١٨).

(٢) تفسير الطبري (٢١/١٣٩) المجلد الحادي عشر.

تشهدوا معه الحرب فإنا نخاف عليكم الهلاك[(1)].

قال مقاتل: نزلت في المنافقين وذلك أن اليهود أرسلت إلى المنافقين وقالوا: ما الذي يحملكم على قتل أنفسكم بيد أبي سفيان ومن معه، فإنهم إن قدروا عليكم في هذه المرة لم يستبقوا منكم أحدًا وإنا نشفق عليكم أنتم إخواننا وجيراننا هلموا إلينا، فأقبل عبدالله بن أبي وأصحابه على المؤمنين يعوقونهم ويخوفونهم بأبي سفيان ومن معه، وقالوا: لئن قدروا عليكم لم يستبقوا منكم أحدًا ما ترجون من محمد؟ ما عنده خير، ما هو إلا أن يقتل ههنا، انطلقوا بنا إلى إخواننا - يعني اليهود- . فلم يزدد المؤمنون بقول المنافقين إلا إيمانًا واحتسابًا[(2)].

ولما فتح رسول الله ﷺ مكة، ووعد أمته ملك فارس والروم، قال المنافقون واليهود: هيهات هيهات، من أين لمحمد ملك فارس والروم هم أعز وأمنع من ذلك، ألم يكف محمدًا مكة والمدينة حتى طمع في ملك فارس والروم فأنزل الله تعالى: ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ ﴾[(3)] يريدون بقولهم هذا تثبيط الناس وإضعاف هممهم وعزائمهم[(4)].

فانظر إلى ولاء هؤلاء المنافقين لليهود كيف أصبحوا منفذين لخطط اليهود، يرون لليهود الغلبة، ولا يرون للمؤمنين قدرًا ولا يظنون بهم خيرًا، يسمعون أراجيف اليهود

---

(١) انظر: تفسير الطبري (٢١/١٣٥) وما بعدها المجلد الحادي عشر، والبغوي (٣/٥١٦) وما بعدها، وابن كثير (٣/٤٧٤) وما بعدها، وفتح القدير للشوكاني (٤/٢٦٩).

(٢) تفسير البغوي (٣/٥١٨).

(٣) سورة آل عمران، آية (٢٦).

(٤) ذكره الواحدي في أسباب النزول ص(١٠٠)، وذكر نحوه ابن حجر في العجاب في بيان الأسباب (٢/٦٧٥) وعزاه للثعلبي.

ثم ينقلونها بحروفها للمؤمنين متأثرين بها، مصدقين لها، أما المؤمنون فهم ينظرون بنور الله، قد ثبتهم الله لا يأبهون بأقوالهم ولا يزيدهم ما سمعوه إلا قوة في إيمانهم.

ومن أساليب هؤلاء المنافقين في التثبيط والتخذيل: الخوض في الأخبار الكاذبة التي يكون معها اضطراب الناس وتخويفهم من الكفار ومن ثم سماهم الله سبحانه المرجفين قال تعالى: ﴿لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾﴾[1].

وأصل الرجف: الحركة والاضطراب[2].

والمنافقون هم أهل الإرجاف في المدينة بالكذب، وأرجف القوم إذا خاضوا في الأخبار السيئة وذكر الفتن، والمرجفون هم الذين يولدون الأخبار الكاذبة التي يكون معها اضطراب الناس[3].

وقد كان المنافقون يقولون: أتاكم عدد وعدة، جاء الأعداء وجاءت الحرب، يرجفون برسول الله ﷺ وبالمؤمنين[4].

وقد ذكر البغوي أن أناسًا من المنافقين كانوا إذا خرجت سرايا رسول الله ﷺ يوقعون في الناس الرعب[5].

وأخرج ابن أبي حاتم (ت٣٢٧هـ) عن جابر بن عبدالله قال: جعل المنافقون الذين تخلفوا بالمدينة يخبرون عن النبي ﷺ أخبار السوء يقولون: إن محمدًا وأصحابه قد جهدوا

(١) سورة الأحزاب، آية (٦٠).

(٢) النهاية في غريب الحديث لابن الأثير (٢/٢٠٣) (رجف).

(٣) انظر: لسان العرب (٣/٥٩٦) (رجف).

(٤) انظر: تفسير الطبري (٢٢/٤٨) المجلد الثاني عشر، وتفسير البغوي (٣/٥٤٤)، وتفسير النسفي (٣/٣١٣)، ابن كثير (٣/٥٢٠).

(٥) تفسير البغوي (٣/٥٤٤).

في سفرهم، وهلكوا، فبلغهم تكذيب حديثهم وعاقبة النبي ﷺ وأصحابه فساءهم ذلك فأنزل الله: ﴿إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا۟ قَدْ أَخَذْنَآ أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّوا۟ وَّهُمْ فَرِحُونَ ۝﴾[1][2].

وحين أراد رسول الله ﷺ أن يغزو الروم في غزوة تبوك بلغه أن ناسًا من المنافقين يجتمعون في بيت سويلم اليهودي يثبطون الناس عن الجهاد، فبعث إليهم رسول الله ﷺ نفرًا من أصحابه وأمرهم أن يحرقوا عليهم بيت سويلم[3].

والمنافق يحاول جاهدًا إقناع المسلمين بأن ما رآه من التخلف عن القتال هو الحق الذي تؤيده الأدلة العقلية ليثبطهم عن القتال، مع أن المؤمن إذا نظر إلى ما يذكره هذا المنافق من علل وجدها لا تساوي في ميزان الحق شيئًا.

ومن أمثلة ما يذكره المنافقون ويرددونه من علل راجين أن يجدوا آذانًا صاغية وقلوبًا ضعيفة تتبعهم في التخلف:

أ- خوفهم من الهزيمة وما يتبعها من ظهور المشركين عليهم، فيريدون أن يكون لهم يد عند الكفار عند الحاجة إليهم قال تعالى: ﴿فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ﴾[4].

والذين في قلوبهم مرض: هم المنافقون وهم الذين يسارعون في موالاة ومصانعة المشركين واليهود والنصارى ومناجاتهم ومناصحتهم وموادتهم ومعاونتهم في الظاهر

---

(١) سورة التوبة، آية (٥٠).

(٢) لباب النقول للسيوطي ص(٢٢٨).

(٣) روى هذا الأثر عن رسول الله ﷺ ابن هشام في السيرة (١٦٠/٤)، وإسناده ضعيف لجهالة شيخ ابن هشام وشيخه، وأحمد بن عمرو بن الضحاك في الآحاد والمثاني (٤/٤)، وذكره ابن كثير في البداية والنهاية (٣/٥).

(٤) سورة المائدة، آية (٥٢).

والباطن[1].

ب- السبب الثاني الذي يذكره المنافقون وقد يتأثر به بعض المؤمنين هو عدم مناسبة الزمان للقتال.

قال تعالى: ﴿ فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓا۟ أَن يُجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُوا۟ لَا تَنفِرُوا۟ فِى ٱلْحَرِّ ۗ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا ۚ لَّوْ كَانُوا۟ يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾ ﴾[2]، وكان سبب نزول هذه الآية ما قاله المنافقون حين خرج رسول الله ﷺ في غزوة تبوك، وكان ذلك زمان شدة الحر وطيب الظلال والثمار يقولون: لا تجاهدوا زمان شدة الحر[3]. وقد كان هذا منهم زهادة في الجهاد، وشكًا في الحق وإرجافًا برسول الله ﷺ وأصحابه.

جـ- والسبب الثالث: الذي يريدون إقناع الناس به، ليتركوا الجهاد هو التخويف والترهيب من قوة العدو التي لا يطيقها المسلمون، ومثال ذلك قولهم للمسلمين حين أراد رسول الله ﷺ قتال الروم في تبوك: أتحسبون جلاد بني الأصفر كقتال العرب بعضهم بعضًا! والله لكأنا بكم غدًا مقرنين في الحبال. فنزل فيهم قوله تعالى: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ ﴾[4][5].

---

(1) انظر: تفسير الطبري (٦/٢٧٩) المجلد الرابع، والبغوي (٢/٤٤)، وتفسير النسفي (١/٢٨٨)، وابن كثير (٢/٦٩).

(2) سورة التوبة، آية (٨١).

(3) انظر: الطبري (١٠/٢٠١) المجلد السادس، والبيهقي في الدلائل (٥/٢١٤و٢٨١)، وتفسير ابن كثير (٢/٣٧٧).

(4) سورة التوبة، آية (٦٥).

(5) السيرة النبوية لابن هشام (٤/١٦٨)، كما روى نحوه الطبري في تفسيره (١٠/١٧٢و١٧٣) المجلد السادس.

المبحث الرابع: الخوف والهلع عند ذكر نية القتال وظهور علاماته ظاهرة عليهم:

المنافقون أجبن خلق الله يخافون الموت ولا يطيقون ذكر القتال وإذا جاء الكلام عنه والعزم عليه نظروا إلى المتكلم محدقين شاخصة أبصارهم كما ينظر المغشي عليه عند الموت هلعًا وجبنًا أن يؤمروا بقتال.

وكانت أشد سور القرآن عليهم السورة التي يذكر فيها القتال يقول تعالى واصفًا حالهم: ﴿أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُولَٰئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٩﴾﴾[1].

فهم عند البأس جبناء، إذا جاء القتال هابوا الهلاك والقتل هيبة من لا يرجو ما بعده.

وقريب من معنى هذه الآية قوله تعالى واصفا حال المنافقين: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ﴾[2].

كان المنافق إذا نزلت سورة يذكر فيها الأمر بقتال المشركين ينظر إلى رسول الله ﷺ شزرًا بتحديق شديد، كما ينظر الشاخص بصره عند الموت، كراهية للجهاد وجبنًا من أن يأمرهم بالجهاد[3]، وسبب خوفهم أن المسلمين أشد رهبة في صدورهم من الله قال تعالى: ﴿۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ

---

(١) سورة الأحزاب، آية (١٩).

(٢) سورة محمد، آية (٢٠).

(٣) انظر: الطبري (٢٦/٥٤) المجلد ١٣، والبغوي (٤/١٨٣)، وتفسير النسفي (٤/١٥٣)، وابن كثير (٤/١٧٩).

إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١١﴾ لَئِنْ أُخْرِجُوا۟ لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا۟ لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٢﴾ لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِى صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٣﴾ ﴾[1].

وقد كان سبب نزول هذه الآية ما وعد به عبدالله بن أبي وأحزابه يهود بني النضير ويهود بني قريظة بمساعدتهم، وقد كذبوا في ذلك فلم يفعلوا شيئًا مما وعدوا به. والسبب في ذلك هو: خوف هؤلاء المنافقين، والخائف لا ينتصر. قال تعالى: ﴿ لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِى صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِ ۚ ﴾ فالمنافق يخاف من المؤمنين أكثر من خوفه من الله تعالى، وهم من جبنهم وخوفهم لا يقدرون على مواجهة المقاتلين المسلمين، فقتالهم إما في حصون أو من وراء جُدر إذا اضطروا للقتال[2].

المبحث الخامس: ادعاء الطاعة عند الأمر بالقتال مع العمل بخلافها:

المنافقون يظهرون بألسنتهم الموافقة والطاعة لقادتهم ليأمنوا على دمائهم، فإذا خرجوا من عندهم غيروا ما قالوه، وخالفوا العهد وخانوا، وعقدوا اجتماعات سرية يتفقون فيها على الخيانة. قال تعالى مخبرًا عنهم فاضحًا حالهم: ﴿ وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا۟ مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ ٱلَّذِى تَقُولُ ۖ وَٱللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ ۖ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٨١﴾ ﴾[3] فالله يخبر عنهم أنهم يظهرون بألسنتهم الطاعة والموافقة لرسول الله ﷺ فيقولون: إنا آمنا بك فمرنا فأمرك طاعة، فإذا خرجوا من عند رسول الله ﷺ غيروا ما قالوه له، وخانوه، واستسروا ليلاً بغير ما أظهروه وهذا شأن

---

(١) سورة الحشر، الآيات (١١، ١٢، ١٣).

(٢) انظر: تفسير الطبري (٢٨/٤٥) المجلد ١٤، والبغوي (٤/٣٢١)، وابن كثير (٤/٣٤١)، وفتح القدير للشوكاني (٥/٢٠٤).

(٣) سورة النساء، آية (٨١).

المنافق يخالف ظاهره باطنه يظهر الطاعة ويبطن المعصية.

والله يكتب ما يبيتون فهو يعلمه، ويكتبه، وسيجزيهم عليه، وهذا تهديد من الله لهم وتخويف، وقد أمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم بالإعراض عنهم وترك عقابهم، والتوكل عليه سبحانه وكفى به وكيلاً وناصرًا يقول سبحانه: ﴿ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلاً ﴾[1].

المبحث السادس: الرغبة في الخروج مع المسلمين إن علموا أن القتال يسير طمعًا في الغنيمة:

يخاف المنافق القتال والحرب ويهرب منه، لكنهم إن تُركوا فلم يؤمروا بالخروج لتهربهم منه دومًا، أو لقلة نفعهم وكثرة فتنهم، جاءوا يطلبون الخروج مع المسلمين، ولا يكون ذلك إلا إذا علموا أن القتال يسير إما لضعف العدو أو لكثرة أعداد المسلمين مقارنة بعدوهم أو لغير ذلك، فهم لحبهم الدنيا يؤملون الغنائم وقد ذكر الله سبحانه صفتهم هذه في قوله تعالى: ﴿ لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّٱتَّبَعُوكَ وَلَٰكِنۢ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ ٱلشُّقَّةُ ۚ وَسَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَوِ ٱسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾[2].

وذلك أن المنافقين لما رأوا شدة الحر وبعد المسافة في غزوة تبوك، تخلفوا عن رسول الله ﷺ، فأنزل الله هذه الآية موبخًا لهم مبينًا أن السفر لو كان قريبًا سهلاً، والغنيمة قريبة المتناول حاضرة، لخرجوا معك، أما قولهم لما جاءوا يعتذرون إلى رسول الله ﷺ فهو

(١) انظر: الطبري (٥/١٧٧) المجلد الرابع، والبغوي (١/٤٥٥)، وتفسير النسفي (١/٢٣٨)، وابن كثير (١/٥٣٠).

(٢) سورة التوبة، آية (٤٢).

مجرد كذب لأنهم كانوا مستطيعين[1].

ولما رجع المسلمون من غزوة بني المصطلق[2] فقدت راحلة رسول الله ﷺ فسعى لها الرجال يلتمسونها فقال رجل من المنافقين كان في رُفقةٍ من الأنصار: أين يسعى هؤلاء؟ قال أصحابه: يلتمسون راحلة رسول الله ﷺ ضلّت، فقال المنافق: أفلا يحدثه الله بمكان راحلته؟ فأنكر عليه أصحابه ما قال. وقالوا: قاتلك الله، نافقت فلم خرجت وهذا في نفسك؟ قال: خرجت لأصيب عرضًا من الدنيا[3].

وقد سأل المنافقون رسول الله ﷺ السماح لهم بالخروج معه إلى خيبر لما أملوا من الغنائم، لكن رسول الله ﷺ لم يأذن لهم، لأن غنائم خيبر كانت خاصة بمن ذهب مع رسول الله ﷺ إلى مكة معتمرًا، وكان المنافقون حينئذ قد تخلفوا عنه، وقد وعد الله المؤمنين لما انصرفوا من الحديبية فتح خيبر، وجعل الله غنائمها لمن شهد الحديبية خاصة، عوضًا عن غنائم أهل مكة فإنهم انصرفوا على صلح ولم يصيبوا منهم شيئًا.

فلما رأى المنافقون أن الله وعد رسوله مغانم كثيرة عجلت له منها خيبر طلبوا الخروج قال تعالى: ﴿ سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ ۖ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ ۚ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ ۖ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا ۚ بَلْ كَانُوا۟ لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥﴾ ﴾[4].

فالمخلفون هم الذين تخلفوا عن عمرة الحديبية، سيقولون إذا انطلقتم إلى مغانم خيبر: ذرونا نخرج معكم، بعد أن تخلفوا وقت محاربة الأعداء ومصابرتهم، فأمر الله

---

(١) انظر: الطبري (١٠/١٤١) المجلد السادس، وابن كثير (٢/٣٦١).

(٢) غزوة بني المصطلق هي غزوة المريسيع كانت في شعبان سنة ست من الهجرة.

انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٣/٣٠٢)، والبداية والنهاية لابن كثير (٤/١٥٦).

(٣) دلائل النبوية للبيهقي (٤/٦٠).

(٤) سورة الفتح، آية (١٥).

رسوله ﷺ ألا يأذن لهم عقابًا لهم من جنس ذنبهم.

ومعنى قوله تعالى: ﴿ كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ ﴾ أي هكذا قال الله لنا أن غنيمة خيبر لمن شهد الحديبية[1].

المبحث السابع: سوء الظن بالله - تعالى - :

المنافق مقطوع الصلة بالله، لا يعلم ما يعلمه المؤمنون من الثقة بنصر الله وحكمته البالغة سبحانه، ولذلك يسوء ظنه بربه، لأنه يقيس الأمور بظواهرها المادية بعيدًا عن الإيمان بالقضاء والقدر، ثم يبني تصوره وأحكامه، فكلما بدت ظواهر توحي بالشر أو الفساد للمؤمنين المجاهدين توقع ذلك وترقبه، فلا ثقة عنده بنصر الله وقدرته وتدبيره الخفي للأمور، يظن أن الله يخذل نبيه وجنوده المتقين ويُعلي أهل الكفر عليهم، وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم يُغلب وأن أصحابه يستأصلون، وأن المؤمنين يذهبون بالكلية، فهو شاك في ربه العليم القدير يخفي هذا كله في نفسه لكن الله يظهره على فلتات لسانه إذا جاءت الحرب.

وقد ظهر سوء ظن المنافقين بالله واضحًا يوم الأحزاب حين أيقنوا الهزيمة، وتوقعوا ظهور المشركين واستيلاءهم على المدينة، وقتل رسول الله ﷺ وذهاب الإسلام قالوا: ما وعدنا الله ورسوله إلا غرورًا.

قال تعالى مصورًا حالهم: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱذْكُرُوا نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ۝٩ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ۝١٠ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا ۝١١ وَإِذْ يَقُولُ

---

(١) انظر: تفسير الطبري (٢٦/٨٠) المجلد ١٣، والبغوي (٤/١٩٢)، وابن كثير (٤/١٩٠)، وفتح القدير للشوكاني (٥/٤٨).

ﭐلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾ ﴾[1].

ففي يوم الخندق (الأحزاب) ابتلي المؤمنون وحوصروا قريبًا من شهر، واشتد الخوف، وظن المسلمون كل ظن، وأتاهم أعداؤهم من فوقهم ومن أسفل منهم، ونجم النفاق من بعض المنافقين حتى قال بعضهم: كان محمد يعدنا أن نأكل كنوز كسرى وقيصر وأحدنا لا يقدر أن يذهب إلى الغائط[2].

وقد وصف الله خوف الناس في هذه الآية بقوله: ﴿ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ ﴾.

أي: شخصت الأبصار ونبت القلوب عن أماكنها من الخوف والفزع فبلغت الحناجر، وتظنون بالله ظنونًا مختلفة كان بعضها ظنونًا كاذبة، كظن من ظن أن رسول الله ﷺ يهزم وأن أصحابه يقتلون ويذهبون كلهم، وأن ما وعد الله رسوله من النصر لا يكون ونحو ذلك.

ومنها: ظنون حسنة صادقة.

فأما المؤمنون فأيقنوا أن ما وعدهم الله حق، وأنه سيظهر دينه على الدين كله ولو كره المشركون. ففي هذا اليوم ابتلي المؤمنون ومُحصوا ليتبين ويظهر المخلص من المنافق وزلزلوا زلزالاً شديدًا أي حركوا بالفتنة، وفي هذا اليوم قال المنافقون: ما وعدنا الله ورسوله إلا غرورًا[3].

وقد ذكر الله سبحانه هذه الصفة للمنافقين في قوله تعالى: ﴿ لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ

---

(١) سورة الأحزاب، الآيات (٩، ١٠، ١١، ١٢).

(٢) ذكره ابن هشام في السيرة النبوية (٢/١٦٩)، وذكر الطبري (٢١/١٣٣) المجلد ١١ عدة روايات في هذا المعنى، كما رواه البيهقي في الدلائل (٣/٤٢٠ و ٤٣٥).

(٣) انظر: الطبري (٢١/١٢٩) وما بعدها المجلد ١١، والبغوي (٣/٥١٦).

وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ۝ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ۝ ﴾[1]، كان ذلك يوم الحديبية حين صدق الله رسوله الرؤيا بالحق ففتح الله فتحًا مبينًا، وقد كان هذا الفتح والنصر على مشركي قريش عذابًا للمنافقين والمنافقات، فكبتوا وحزنوا وخاب رجاؤهم الذي كان يرجون، وهو رؤية الوهن والضعف في المؤمنين وكانوا يظنون بالله أنه لن ينصر رسوله والمؤمنين على أعدائهم، ولن يعلي كلمته ويظهرها، ولن يجعل كلمة الكافرين السفلى لسوء ظنهم بالله، فجعل الله دائرة العذاب تدور عليهم بالعذاب والهلاك، وقد بينت الآية أن سوء الظن بالله صفة مشتركة بين المنافقين والمشركين[2].

ثم يقول سبحانه بعد هذه الآية بقليل مخاطبًا الأعراب المنافقين الذين يعتذرون إلى رسول الله وقد كانوا تخلفوا عن القتال معه: ﴿ سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا ۚ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًۢا ۚ بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًۢا ۝ بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا ۝ ﴾[3].

---

(١) سورة الفتح، آية (٥، ٦).

(٢) انظر: الطبري (٢٦/٧٣) المجلد ١٣، والبغوي (٤/١٩٠)، وتفسير النسفي (٤/١٥٧)، وابن كثير (٤/١٨٥).

(٣) سورة الفتح، آية (١٢، ١١).

أي أن سبب تخلفكم ليس من أجل أموالكم وأهليكم، بل ظنًا منكم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن معه من أصحابه سيهلكون فلا يرجعون إليكم أبدًا، لأن العدو سيستأصلهم وزين الشيطان وحسن ذلك في قلوبكم، وصححه عندكم حتى حسن عندكم التخلف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فقعدتم عن صحبته[1].

وقريب من معنى هذه الآيات قوله تعالى: ﴿بَشِّرِ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَـٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿١٣٩﴾﴾[2].

فالمنافق لسوء ظنه بربه يظن أن القوة والعزة عند الكفار أعداء الله، فهو يتخذهم أنصارًا وأخلاء وبطانة من دون المؤمنين، وهو معهم في الحقيقة ويُسر إليهم بالمودة، يقول سبحانه: أيبتغون عندهم العزة؟ أي أيطلبون عندهم المنعة والقوة باتخاذهم إياهم أولياء من دون أهل الإيمان وقد نسي هذا المنافق أن العزة إنما تأتي من ذي العزة والمنعة الذي يعز من يشاء ويذل من يشاء، وقد جعلها سبحانه في المؤمنين قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَـٰكِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾[3][4].

المبحث الثامن: توقع انتصار الكفار وهلاك المسلمين وانتظار ذلك:

لما كان المنافق يظن أن العزة والقوة للكافرين نراه يتربص وينتظر انتصارهم وهلاك المؤمنين المجاهدين الصابرين، وزوال دولتهم، وذهاب ملتهم، وذلك لما تكنه نفوسهم للمسلمين من شر، قال تعالى واصفًا حالهم: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ

---

(١) انظر: الطبري (٧٨/٢٦) المجلد ١٣، ودلائل النبوة للبيهقي (١٦١/٤).

(٢) سورة النساء، آية (١٣٨، ١٣٩).

(٣) سورة المنافقون، آية (٨).

(٤) انظر: تفسير الطبري (٣٢٩/٥) المجلد الرابع، وتفسير النسفي (٢٥٩/٤)، وابن كثير (٥٦٧/١).

لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓاْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَٰفِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوٓاْ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴿١٤١﴾ ﴾[1].

ومعنى يتربصون بكم: أي ينتظرون[2].

وفي موضع آخر يقرر الله هذه الصفة بقوله سبحانه: ﴿ وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٩٨﴾ ﴾[3].

فهؤلاء الأعراب المنافقون يعدون نفقاتهم التي ينفقونها في الجهاد، أو في معونة المسلمين مغرمًا: أي غرمًا لزمهم لا يرجون له ثوابًا، ولا يدفعون به عن أنفسهم عقابًا، فهم ينفقون خوفًا ورياءً، وأصل المغرم: التزام ما لا يلزم، والمنافق مع هذا ينتظر بالمؤمنين الحوادث والآفات، وأن تدور بهم الأيام والليالي إلى مكروه، وأن ينقلب الزمان عليهم فيموت الرسول صلى الله عليه وسلم ويظهر المشركون، وما علم أن دائرة السوء منعكسة عليه، وعلى جميع المنافقين. فالله سبحانه جعل دائرة السوء على المنافقين فالمكروه ينزل بهم لا على المؤمنين، فهو السميع العليم سبحانه بمن يستحق النصر ومن يستحق الخذلان[4].

---

(١) سورة النساء، آية (١٤١).

(٢) انظر: تفسير الطبري (٥/٣٣١) المجلد الرابع، البغوي (١/٤٩١).

(٣) سورة التوبة، آية (٩٨).

(٤) انظر: تفسير الطبري (١١/٤) المجلد السابع، والبغوي (٢/٣٢٠)، وابن كثير (٢/٢٨٤)، وفتح القدير للشوكاني (٢/٢٩٥) وما بعدها.

المبحث التاسع: لمز المؤمنين والاستهزاء بهم وبما يعدونه للقتال من نفقة:

اللمز هو العيب، وعيب المؤمنين والاستهزاء بهم من صفات المنافقين، قال تعالى: ﴿ وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴾[1]، فلا يسلم أحد من المؤمنين من لمزهم وعيبهم، حتى المتصدق في الحرب صدقة تطوع لم يوجبها الله عليه، فإن تصدق بكثير قالوا: يتصدق رياء وسمعة، وإن تصدق بشيء يسير ضحكوا منه وقالوا: إن الله لغني عن صدقة هذا. وسبب هذا الموقف منهم أنهم لا يدركون بواعث هذا الإحسان والتطوع في النفوس المؤمنة التي تحب التضحية والمشاركة، وتطمئن بالبذل عن طيب نفس ولما كان المنافق لا يعمل إلا للناس ولا ينفق إلا رياءً ظن أن الناس مثله.

وقد روى البخاري عن ابن مسعود -رضي الله عنه- قال: لما نزلت آية الصدقة كنا نحامل -أي نؤاجر أنفسنا في الحمل- على ظهورنا فجاء رجل فتصدق بشيء كثير، فقالوا: مراءٍ، وجاء رجل فتصدق بصاع فقالوا: إن الله لغني عن صدقة هذا، فنزلت الآية: ﴿ ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾[2][3].

وقد كان من المطَّوعين من المؤمنين في الصدقات عبدالرحمن بن عوف تصدق بأربعة آلاف دينار، وعاصم بن عدي[4]، وذلك أن رسول الله ﷺ رغب في الصدقة وحث

(١) سورة البقرة، آية (١٤).

(٢) سورة التوبة، آية (٧٩).

(٣) رواه البخاري في التفسير (٨/٣٣٠)، ومسلم في الزكاة واللفظ له (٢/٧٠٦) رقم (١٠١٨).

(٤) عاصم بن عدي حليف الأنصار، شهد بدرًا وما بعدها، مات سنة (٤٥هـ). انظر: المعجم الكبير للطبراني (١٧/١٧١)، والإصابة (٢/٢٣٧).

عليها فقام عبدالرحمن بن عوف فتصدق بأربعة آلاف درهم، وقام عاصم بن عدي فتصدق بمائة وسق من تمر، فلمزوهما وقالوا: ما هذا إلا رياء، وكان الذي تصدق بجهده أبو عقيل[(١)]، أتى بصاع من تمر فأفرغه في الصدقة، فتضاحكوا به.

وقالوا: إن الله لغني عن صاع أبي عقيل[(٢)]، وقد كان أبوعقيل - رضي الله عنه - يعمل ليحصل على صاعين أجرًا له، أحدهما لأهله، والآخر جاء به إلى رسول الله ﷺ فقال المنافقون عنه: إنما أراد أن يذكر بنفسه.

وقد كانت هذه النفقات في غزوة تبوك[(٣)].

فالمنافقون يجرحون المكثر ويلمزونه لأنه بذل كثيرًا، ويحتقرون الفقير لأنه بذل قليلاً، وهم قاعدون لا يبذلون، شحيحو الأنفس بخلاء، فجازاهم الله بأن سخر منهم[(٤)].

المبحث العاشر: إفشاء أسرار المؤمنين الحربية:

الخيانة من صفات المنافقين التي لا تنفك عنهم، وتظهر هذه الصفة إذا جاءت الحرب، وحينئذ يحرص المنافقون على نشر الإشاعات التي تضعف المؤمنين المجاهدين، فتراهم يتسارعون في السؤال عن حال المجاهدين، فإذا سمعوا شيئًا عنهم خيرًا أو شرًا نشروه قبل أن يذاع من مصادر رسمية، أو تحصل المصلحة من إعلانه للناس، وهذا نوع من الحرب المعنوية على جند المسلمين التي قد تضعفهم كثيرًا خاصة في هذا الزمان التي أصبح انتشار الأخبار فيها سريعًا عن طريق وسائل الإعلام المختلفة، وعن صفتهم هذه يقول الله سبحانه: ﴿ وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُوا۟ بِهِۦ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى

---

(١) أبوعقيل الأنصاري صحابي جليل اسمه حبحاب وقيل حثحاث. الإصابة لابن حجر (٤/١٣٦).

(٢) رواه الطبري (١٠/١٩٦)، وذكره ابن إسحاق في سيرته (٤/١٩٦).

(٣) تفسير الطبري (١٠/١٩٥)، المجلد السادس، والواحدي في أسباب النزول (٢٥٥).

(٤) انظر: تفسير الطبري (١٠/١٩٤)، المجلد السادس، والبغوي (٢/٣١٤)، وفتح القدير للشوكاني (٢/٣٨٥).

ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ۗ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَـٰنَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٣﴾ ﴾[1].

وكان سبب نزول هذه الآية أن رسول الله ﷺ كان يبعث السرايا فإذا غلبوا وأمنوا من عدوهم، أو غُلبوا وأصاب منهم عدوهم، أسرع المنافقون يسألون عن حالهم فيفشونه ويحدثون به قبل أن يحدث به رسول الله ﷺ فيضعفون به قلوب المؤمنين. وهذا معنى قوله تعالى: ﴿أَذَاعُواْ بِهِۦ ۖ ﴾ أي أشاعوه، وأفشوه حتى يبلغ عدوهم أمرهم، يقول أحدهم: أصاب المسلمون من عدوهم كذا وكذا، وأصاب العدو من المسلمين كذا وكذا فأفشوه بينهم، وهذا فيه مفاسد منها:

رواج كثير من الأخبار الكاذبة التي لا أساس لها من الصحة، ومنها أن بعض الأخبار الحربية في كتمانها مصلحة لجند المسلمين حتى تكتمل خطتهم الحربية، وينالوا من عدوهم شيئًا كانوا يسعون له، كما حدث حين بعث رسول الله ﷺ سعد بن معاذ -رضي الله عنه- وغيره يوم الأحزاب إلى يهود بني قريظة يناشدونهم في حلفهم، ويطلبون منهم عدم مساعدة قريش في حربها ضد المسلمين، فأبى اليهود فرجع سعد ومن معه حين يئسوا منهم وأخبروا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالذي قالوا، فأمرهم رسول الله بكتمان خبرهم[2].

وفي هذه الغزوة أيضًا قال رسول الله ﷺ لنعيم بن مسعود -رضي الله عنه-: « إني مسر إليك شيئًا فلا تذكره » وذكر له طلب اليهود الصلح، على أن يرد إخوانهم يهود بني النضير إلى دورهم.

---

(١) سورة النساء، آية (٨٣).

(٢) دلائل النبوة للبيهقي (٣/٤٠٣).

والأمثلة في هذا كثيرة كلها تبين مصلحة كتمان الأخبار[1].

ولو أن الناس ردوا هذه الإشاعات التي يسمعونها من المؤمنين أو المنافقين إلى الرسول وإلى أولي الأمر منهم، لعلمه الذين يستنبطونه منهم أي: أمراؤهم في الحرب أولو الفقه في الدين والعقل، فهؤلاء يستخرجون تدبيره بفطنهم وتجاربهم ومعرفتهم بأمور الحرب ومكايدها، فالواجب ألا يذيعوا ما جاءهم من الخبر حتى يكون النبي ﷺ أو قائدهم هو الذي يذكر هذا الخبر بعد أن تثبت صحته أو كذبه، ثم يعلنوا ما ينبغي أن يعلن، ويكتموا ما ينبغي أن يكتم، ولو فعلوا ذلك لعلم العلماء الذين يتتبعون الأخبار ويحرصون عليها حقيقة هذا الخبر الذي جاءهم[2].

وفي الآية إنكار على من يبادر إلى الأخبار فينشرها قبل تحققها وقد لا يكون لها صحة قال ﷺ: « كفى بالمرء كذبًا أن يحدث بكل ما سمع »[3]، وتوجيه إلى وسائل الإعلام في بلاد المسلمين بالرجوع إلى قادتهم، وتلقي الأخبار منهم دون غيرهم، والحذر من هذا الإشاعات التي تكيد للمسلمين وتضعفهم، وقد نهى ﷺ عن قيل وقال[4] أي الذي يكثرون من الحديث عما يقوله الناس من غير تثبت.

المبحث الحادي عشر: إثارة القلاقل والخصومات بين أفراد الجيش:

من طبيعة المنافقين كثرة الخصومات وهم إذا خاصموا فجروا، وإذا جاءت الحرب التي تزيد من لحمة المسلمين وتعاطفهم طفق هؤلاء المنافقون يثيرون المشاكل ويختصمون مع المسلمين المخلصين لله دينهم يقول الله سبحانه عنهم: ﴿ سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ ۖ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ ۚ قُل لَّن

(١) المرجع السابق (٣/٤٠٥).

(٢) انظر: تفسير الطبري ٠٥/١٨٠)، المجلد الرابع، والبغوي (١/٤٥٦)، وتفسير النسفي (١/٢٣٩).

(٣) رواه مسلم في صحيحه في المقدمة (١/١٠) الرقم (٥).

(٤) ورد ذلك في حديث صحيح رواه البخاري في الزكاة (٣/٣٤٠).

تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُوا۟ لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥﴾ ﴾[1].

وسبب نزول هذه الآية أنه لما كانت عمرة الحديبية تخلف بعض الأعراب خوفًا من قريش أن تقاتل رسول الله ﷺ، فوعد الله من خرج مع نبيه بغنائم خيبر وكانت بعد الحديبية بقليل، وعاقب سبحانه من تخلف من الأعراب بالحرمان من هذه الغنائم عقابًا لهم من جنس ذنبهم، فجادل هؤلاء الأعراب المنافقين بالباطل ولم يسلموا بحكم الله الذي يستحقونه وقالوا للمؤمنين لما أخبروهم بحكم الله: ﴿بَلْ تَحْسُدُونَنَا﴾ أي: يمنعكم الحسد من أن نصيب معكم الغنائم.

وقد بين -تعالى- سبب جدالهم هذا وخصومتهم وهو أنهم ﴿لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي ليس الأمر كما زعموا ولكن القوم لا فهم لهم، فليس المنع سببه حسد المؤمنين بل حكم الله، والمنافق لا يعرف ما له وما عليه من أمر الدين إلا قليلاً يسيرًا، ولو عقل ذلك ما قال للرسول صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين لما أخبروهم بتحريم غنائم خيبر عليهم: بل تحسدوننا[2].

ومن الأمثلة على إثارة الفتنة والقلاقل بين جند المسلمين ما فعلوه لما خرج رسول الله ﷺ إلى تبوك حين خلف رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب على أهله، وأمره بالإقامة فيهم، فأشاع المنافقون بين الناس أنه ما خلفه إلا استثقالاً له، وقد تأثر بهذا القول كثيرون، حتى إن عليًا - رضي الله عنه - خرج من المدينة ولحق برسول الله، ولقيه علي بعد ثلاثة أميال من المدينة فقال: يا نبي الله، زعم المنافقون أنك استثقلتني وتخففت مني،

---

(١) سورة الفتح، آية (١٥).

(٢) انظر: الطبري (٢٦/٨٠)، المجلد الثالث عشر، والبغوي (٤/١٩٢)، وابن كثير (٤/١٩٠)، وفتح القدير الشوكاني (٥/٤٧).

فقال: « كذبوا ولكنني خلفتك لما تركت ورائي، فارجع فاخلفني في أهلي وأهلك، أفلا ترضى يا علي أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى، إلا أنه لا نبي بعدي »، فرجع علي إلى المدينة [1]. فانظر إلى علي بن أبي طالب - رضي الله عنه- وهو من هو في العقل والفضل والصحبة كيف تأثر بقول هؤلاء المنافقين، وكاد يصدقه لولا ما سمع من رسول الله صلى الله عليه وسلم، فكيف ببقية المؤمنين خاصة في هذا الزمان نسأل الله السلامة من كيد المنافقين.

المبحث الثاني عشر: عدم الاستعداد للخروج للقتال:

يُعرف المنافق بأنه إذا جاء الأمر بالجهاد والقتال لا يريد الخروج، ويلاحظ عليه عدم أخذ العدة، أو تجهيز السلاح، في الوقت نرى فيه بقية المجاهدين يأخذون بالأسباب التي تعينهم على السفر والقتال، فإذا جاءت ساعة الرحيل افتعل المنافقون الأعذار قال الله تعالى عنهم: ﴿ وَلَوْ أَرَادُوا۟ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا۟ لَهُۥ عُدَّةً وَلَـٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْقَـٰعِدِينَ ﴾[2].

أي لو أراد هؤلاء الذين يستأذنون رسول الله ﷺ في ترك الخروج للجهاد - وكانوا من المنافقين- لو أرادوا الخروج مع المؤمنين للغزو لأعدوا له عدة، وتأهبوا للسفر والعدو، ولكن علم الله حالهم وكره خروجهم فمنعهم، وحبسهم من الخروج، وثقّله عليهم وألهموا أسباب الخذلان[3].

---

(١) السيرة لابن هشام (٤/١٦٣)، والحديث رواه البخاري مختصرًا في المغازي (٨/١١٢)، وفي فضائل الصحابة (٧/٧١).

(٢) سورة التوبة، آية (٤٦).

(٣) انظر: تفسير الطبري (١/١٤٤)، المجلد السادس، والبغوي (٢/٢٩٨)، وتفسير النسفي (٢/١٢٨)، وابن كثير (٢/٣٦٥).

المبحث الثالث عشر: الشح والبخل بالأموال والأنفس والممتلكات ومنع المسلمين من الاستفادة منها :

جمع المنافقون بين الكذب والجبن وقلة الخير، فلا يخرجون مع المؤمنين للقتال بخلاً بأنفسهم، ولا ينفقون شيئًا من أموالهم، ولو احتاج المسلمون إلى شيء مما يملكونه لبخلوا به ولو لم يكلفهم هذا شيئًا، كأن يحتاج الجند إلى المرور بأرض يملكها أحدهم فإنه يمنعهم ذلك. قال تعالى واصفًا بخلهم: ﴿فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓاْ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾[1].

وكان هذا في غزوة تبوك حين كره المنافقون أن يغزوا الكفار بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله، ميلاً منهم للدعة والراحة، وشحًا بالمال أن ينفقوه في طاعة الله، لأنهم لا يرجون ثوابه يوم الحساب لعدم إيمانهم به إيمانًا جازمًا[2].

وفي الآية الأخرى يقول سبحانه: ﴿قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ۖ وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ۖ فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ ۚ﴾[3].

فوصفهم سبحانه بالشح مرتين، فهو سبحانه يحيط علمًا بالمعوقين لغيرهم عن شهود الخير، وأنهم ﴿أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ۖ﴾ أي: بخلاء بالخير، بخلاء بالنفقة في سبيل الله على ضعفاء المسلمين، بخلاء حتى بالمودة والشفقة عليكم، لما في أنفسهم من العداوة

---

(١) سورة التوبة، آية (٨١).

(٢) انظر: الطبري (١٠/ ٢٠٠)، المجلد السادس.

(٣) سورة الأحزاب، آية (١٨، ١٩).

والضِّغْن على المسلمين، ثم كررها سبحانه مرة أخرى فقال: ﴿أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ﴾ أي عند الغنيمة يشاحون المؤمنين، فهم في الحرب أجبن الناس، وعند الغنيمة أشح قوم، وأسوأ مقاسمة، يقولون: أعطونا أعطونا فإنا قد شهدنا معكم، وقد كانوا في الحرب أجبن قوم واخذله للحق(١).

ومن أمثلة ذلك ما ذكره ابن إسحاق في السيرة عن مِرْبع بن قَيْظي الضرير فإنه ﷺ لما سار إلى أحد قال: « مَنْ رجل يخرج بنا على القوم من كثب - أي من قرب- ، من طريق لا يمر بنا عليهم » فقال رجل: أنا يا رسول الله، فمر به في حَرّة بني حارثة وبين أموالهم، حتى سلك في بستانٍ لمربع، فلما سمع حس رسول الله ﷺ ومن معه من المسلمين، قام يحثي في وجوههم التراب ويقول: إن كنت رسولاً فإني لا أحل لك أن تدخل في حائطي، وقيل: إنه أخذ حفنة من تراب ثم قال: والله لو أعلم أني لا أصيب بها غيرك يا محمد لضربت بها وجهك، فابتدره القوم ليقتلوه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «دعوه، فهذا الأعمى أعمى القلب وأعمى البصيرة » وهو الذي قال يوم الخندق: إن بيوتنا عورة(٢).

المبحث الرابع عشر: موالاة الكفار عامة واليهود خاصة ومحبتهم والمسارعة فيهم:

مولاة الكفار طبيعة المنافقين وصفتهم الأولى ولو لم يكن من صفات المنافقين إلا هذه لكفت في معرفتهم لشدة وضوحها فيهم.

والمولاة أصلها: إظهار المودة بالأقوال والأفعال، وقد عرفها العلماء بأنها: متابعة غير المسلمين، ومحبتهم، والميل إليهم، ونصرتهم، ومصاحبتهم، ومصادقتهم،

---

(١) انظر: تفسير الطبري (٢١/١٤٠، ١٤١)، المجلد ١١، والبغوي (٣/٥١٨)، وتفسير الشوكاني (٤/٢٧٠).

(٢) السيرة النبوية لابن هشام (٢/١٧٠) و (٣/٦٩)، ولم أجده عند غيره.

ومناصحتهم، وإسرار المودة إليهم، وإفشاء أحوال المؤمنين الباطنة إليهم(١).

وقد قال رسول الله ﷺ: « أوثق عرى الإيمان الموالاة في الله والمعاداة في الله والحب في الله والبغض في الله »(٢).

والموالاة محرمة بالإجماع، ومن تولى المشركين فهو مشرك، وقد أوجب الله سبحانه معاداة الكفار وأكد إيجابه، وحرم موالاتهم وشدد فيها، حتى إنه ليس في كتاب الله تعالى حكم فيه من الأدلة أكثر ولا أبين من هذا الحكم بعد وجوب التوحيد وتحريم الشرك(٣).

ولما كان قلب المنافق مملوءًا بحب الكافرين لم نجد فيه أي محبة للمؤمنين إذ كيف يجتمع في قلبه حبهم وحب من يخالفهم في كثير من الأمور قال تعالى: ﴿ بَشِّرِ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ۝١٣٨ ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَـٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ۝١٣٩ ﴾(٤) فعلم بهذه الآية أن المنافقين هم أشد الناس ولاء للكفار وتشبهًا بهم.

وموالاة أعداء الله عامة واليهود خاصة عند المنافقين لها صور كثيرة منها ما ورد في كتاب الله وهو:

أ- كثرة التردد عليهم والاتصال بهم يعدون الكفار بما يحتاجون إليه من مساعدة.

ب- طاعتهم فيما حرم الله.

---

(١) تفسير ابن كثير (١/٥٧١).

(٢) رواه الطبراني في الكبير (١١/٢١٥)، والطيالسي ص(٥٠)، والحاكم في المستدرك (٢/٤٨٠)، وصحح إسناده وخالفه الذهبي، ونحوه عند الإمام أحمد في مسنده (٤/٢٨)، والحديث حسنه الألباني في الصحيحة (٢/٧٣٤).

(٣) بيان النجاة والفكاك لحمد بن عتيق ص(٢٥٧ و ٢٦٠).

(٤) سورة النساء، آية (١٣٨، ١٣٩).

وهذا بيان هذه الصور وتفصيل الكلام فيها:

أ- كثرة التردد عليهم، والاتصال بهم، يعدونهم بما يحتاجون من مساعدة:

المنافقون إخوان الذين كفروا من أهل الكتاب، وعلاقتهم بهم وطيدة، تكثر بينهم الاجتماعات والاتصالات، وتكثر في هذه الاجتماعات الخيانات، فهم يعدون هؤلاء الكفار كذبًا وزورًا بالقتال بجانبهم، ومناصرتهم ضد المسلمين، وببناء القواعد والمعاقل التي تنطلق منها جنودهم لحرب المسلمين.

يقول الله سبحانه: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ۝ لَئِنْ أُخْرِجُواْ لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُواْ لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ۝ ﴾[1].

وقد نزلت هذه الآية في عبدالله بن سلول وأصحابه الذين بعثوا إلى بني النضير، وبني قريظة، حين أراد رسول الله ﷺ قتالهم: أن اثبتوا وتمنعوا فإنا لن نسلمكم، وإن قوتلتم قاتلنا معكم، وإن أخرجتم من المدينة خرجنا معكم، ولا نطيع فيكم أحدًا يسألنا خذلانكم وخلافكم[2].

ثم خذلهم المنافقون فلم يقاتلوا معهم، فعند ذلك قذف الله الرعب في قلوب هؤلاء اليهود فسألوا رسول الله ﷺ أن يجليهم ويكف عن دمائهم، وقد قال الله عن المنافقين: ﴿ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴾ أي: لو قصدوا نصر اليهود لولوا الأدبار منهزمين لأن من طبعهم الجبن والخوف.

ثم لا ينصرون أي: اليهود لن يغلبوا المسلمين إذا نصرهم المنافقون.

---

(١) سورة الحشر، آية (١١، ١٢).

(٢) ذكره ابن إسحاق في السيرة (١٧٣/٢) و (٢٠٠/٣و ٢٠٤)، والبيهقي في دلائل النبوة (١٨١/٣).

وقد سمى الله المنافقين في هذه الآيات، إخوان الذين كفروا من أهل الكتاب لأنهم كفار مثلهم[1].

أما بناء المعاقل والقواعد لمساعدة الكفار في حربهم ضد المسلمين فيدل عليه قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًۢا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبْلُ ۚ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٠٧﴾ ﴾[2].

وقد نزلت هذه الآية في مجموعة من المنافقين، اتفقوا مع رجل يقال له: «أبوعامر الراهب» لبناء مسجد ينطلقون منه لقتال رسول الله ﷺ، وكان أبوعامر هذا رجلاً من الخزرج قد تنصر في الجاهلية، وكان فيه عبادة، وله شرف في الخزرج كبير، فلما قدم رسول الله ﷺ مهاجرًا إلى المدينة بارزه بالعداوة، وخرج فارًا إلى كفار مكة يعينهم على حرب رسول الله ﷺ، ولما رأى أمر رسول الله ﷺ في ظهور وارتفاع، ذهب بعد أُحد إلى هرقل الروم يستنصره على رسول الله ﷺ فوعده ومنّاه، فكتب إلى جماعة من قومه من المنافقين يذكر لهم أنه سيقدم بجيش كبير، يغلب به رسول الله ﷺ، وأمرهم ببناء معقل يخبئون فيه ما استطاعوا من قوة وسلاح، ويرسل إليه رسله، ويكون مرصدًا إذا قدم بنفسه، فشرعوا في بناء مسجد الضرار بجوار مسجد قباء، وفرغوا منه قبل خروج رسول الله ﷺ إلى تبوك، ونزل الوحي على رسول الله ﷺ لما رجع إلى المدينة ولم يبق بينه وبينها إلا يوم أو بعض يوم، فبعث ﷺ إلى المسجد من هدمه وحرقه، فهم بنوا هذا المسجد مضارة للمؤمنين، وكفرًا بالله، لمعادتهم بذلك رسول الله ﷺ، وليفرقوا به بين المؤمنين، وإرصادًا أي انتظارًا وإعدادًا لمن حارب الله ورسوله وهو أبوعامر الراهب،

---

(١) انظر: تفسير الطبري (٢٨/٤٦) المجلد ١٤، والبغوي (٤/٣٢١).

(٢) سورة التوبة، آية (١٠٧).

يقول الله: ﴿ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ ﴾ أي أنهم حلفوا ما أرادوا ببنائه إلا الرفق بالمسلمين، والتوسعة على أهل الضعف، ومن عجز عن السير إلى مسجد رسول الله ﷺ للصلاة فيه، والله يشهد إنهم لكاذبون في حلفهم ذلك[1].

ومن صورها:

ب- طاعتهم فيما حرم الله:

بلغت محبة المنافقين للكفار أن قدموا طاعتهم على طاعة الله، فإن أشاروا عليهم بشيء فعلوه وإن كان فيه معصية لله، ومن ذلك إنهم لو طلب منهم الكفار ترك الجهاد في سبيل الله، وخذلان المؤمنين، أطاعوهم فهم أعوان في الباطن لأهل الباطل يقول الله سبحانه: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى ۙ الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ ۖ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴿٢٦﴾ ﴾[2].

فهؤلاء المنافقون الله أملى لهم وتركهم، والشيطان سول وزيّن لهم القبيح، فلم يوفقوا للهدى، لأنهم قالوا للذين كرهوا ما أنزل الله من الأمر بقتال أهل الشرك؛ سنطيعكم في بعض الأمر: الذي هو خلاف أمر الله سبحانه وأمر رسوله ﷺ، وهو التعاون على عداوة محمد ﷺ، والقعود عن الجهاد وكانوا يقولون هذا سرًا ولا يظهرونه للمسلمين، ففضحهم الله لأنه سبحانه يعلم إسرارهم[3].

---

(١) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٤/ ١٧٣)، والطبري (١١/ ٢٣)، والبيهقي في الدلائل (٥/ ٢٥٨، ٢٦٢)، والبغوي (٢/ ٣٢٦)، والقرطبي (٨/ ١٦١) وما بعدها، وابن كثير (٢/ ٣٨٩).

والحديث رواه كما سبق الطبري والبيهقي وعزاه الشوكاني في فتح القدير (٢/ ٤٠٤) لابن أبي حاتم وابن المنذر وابن مردويه.

(٢) سورة محمد، الآيتان (٢٥- ٢٦).

(٣) انظر: تفسير الطبري (١٣/ ٥٩) المجلد ١٣، والبغوي (٤/ ١٨٤)، وتفسير النسفي (٤/ ١٥٤)، وابن كثير (٤/ ١٨١)، وتفسير الشوكاني (٥/ ٣٨).

الخاتمة:

الحمد لله الذي أعان على إتمام هذا البحث بمنه وكرمه، وقد كان من نتائجه وتوصياته:

١- بيان خطورة النفاق، والتحذير منه.

٢- أهمية أخذ العبرة من التاريخ ففيه بيان كيد هؤلاء المنافقين، وتعاونهم مع أعداء المسلمين وكثرة هذه الوقائع تدل على كثرة من يغتر بهم من المسلمين.

٣- تحذير قادة المسلمين، وقادة جيوشهم في كل زمان ومكان من المنافقين، ولو كان من سبقنا يعلم كيد المنافقين الذي حل بهم، ما قربوهم ولا تابعوهم، والحكمة تستدعي أخذ العظة من التاريخ.

٤- وضوح صفات المنافقين أزمنة الحروب، وهذا من رحمة الله سبحانه، فالحاجة لمعرفتهم في أزمنة الحروب تشتد ليحذر منهم تحقيقًا لمصلحة البلاد والعباد.

٥- على قادة جيوش المسلمين، وأفرادهم أن يعلموا أن المنافقين الخارجين معهم للقتال قوة لا يقام لها وزن، بل هي قوة لحساب أعدائهم، والخيانة متوقعة منهم.

٦- أهمية تدريب جند المسلمين على مواجهة كيد المنافقين وشبهاتهم، والاستعداد لها ومحاربتها، وهذا أعظم من الاستعداد بالأسلحة المادية.

٧- المنافقون يتعاونون مع جميع أعداء المسلمين، وتعاونهم مع اليهود وموالاتهم أشد، وهذه من أوضح الصفات التي يعرف المنافقون بها.

والله أعلم، وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وسحبه وسلم.

* * *

ثبت المصادر والمراجع :

١- **الآحاد والمثاني**، أحمد بن عمرو بن الضحاك، أبوبكر الشيباني ت٢٨٧هـ، حققه د. باسم الجوابرة، دار الراية، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ.

٢- **الإحسان بترتيب صحيح ابن حبان**، محمد بن حبان ت٣٥٤هـ، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٧هـ.

٣- **أحكام القرآن**، أبوبكر محمد بن عبدالله المعروف بابن العربي ت٥٤٣هـ، تحقيق علي محمد البجاوي، دار الجيل، بيروت، ١٤٠٨هـ.

٤- **أسباب النزول**، أبوالحسن علي بن أحمد الواحدي النيسابوري ت٤٦٨هـ، تحقيق عصام بن عبدالمحسن الحميدان، دار الإصلاح، الدمام، الطبعة الثانية، ١٤١٢هـ.

٥- **الاستيعاب في معرفة الأصحاب**، أبوعمر يوسف بن عبدالبر القرطبي ت٤٦٣هـ، دار الكتاب العربي، بيروت.

٦- **الإصابة في تمييز الصحابة**، أحمد بن علي بن حجر العسقلاني ت٨٥٢هـ، دار الكتاب العربي، بيروت.

٧- **البداية والنهاية**، إسماعيل بن عمر بن كثير ت٧٧٤هـ، مكتبة المعارف، بيروت، الطبعة الثانية، ١٣٩٤هـ.

٨- **بيان النجاة والفكاك من موالاة المرتدين وأهل الإشراك**، حمد بن علي بن عتيق النجدي، ضمن مجموعة التوحيد، نشر إدارة البحوث العلمية والإفتاء، المملكة العربية السعودية.

٩- **تفسير القرآن العظيم**، إسماعيل بن عمر بن كثير ت٧٧٤هـ، المكتبة التجارية، مصر، الطبعة الثالثة، ١٣٧٦هـ.

١٠- **التفسير القيم**، ابن القيم محمد بن أبي بكر ت٧٥١هـ، جمعه محمد بن أويس الندوي، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٣٩٨هـ.

١١- **تفسير النسفي**، عبدالله بن أحمد النسفي ت٧٠١هـ، دار الكتاب العربي، بيروت.

١٢- **تهذيب التهذيب**، أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، ت٨٥٢هـ، دائرة المعارف، حيدر آباد، ١٣٢٥هـ.

١٣- **جامع البيان في تفسير القرآن**، تفسير الطبري، محمد بن جرير الطبري ت٣٠١هـ، دار الفكر،

بيروت، ١٤٠٥هـ.

١٤- **جامع العلوم والحكم**، عبدالرحمن بن أحمد بن رجب الحنبلي ت٧٩٥هـ، رئاسة إدارات البحوث العلمية، الرياض.

١٥- **الجامع لأحكام القرآن**، تفسير القرطبي ت٦٧١هـ، أبوعبدالله محمد بن أحمد القرطبي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ.

١٦- **حاشية كتاب التوحيد**، عبدالرحمن بن محمد بن قاسم ت١٣٩٢هـ، الطبعة الثالثة، ١٤٠٨هـ.

١٧- **دلائل النبوة**، أحمد بن الحسين البيهقي ت٤٥٨هـ، تحقيق عبدالمعطي قلعجي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٥هـ.

١٨- **زاد المعاد**، ابن القيم محمد بن أبي بكر ت٧٥١هـ، تحقيق شعيب وعبدالقادر الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، الطبعة السابعة، ١٤٠٥هـ.

١٩- **سلسلة الأحاديث الصحيحة**، محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، بيروت، دمشق، الطبعة الثالثة، ١٤٠٣هـ.

٢٠- **سنن الترمذي**، محمد بن عيسى الترمذي ت٢٧٩هـ، تحقيق أحمد شاكر، مطبعة البابي الحلبي، مصر، الطبعة الثانية، ١٣٩٨هـ.

٢١- **سير أعلام النبلاء**، محمد بن أحمد الذهبي ت٧٤٨، تحقيق شعيب الأرناؤوط وآخرين، مؤسسة الرسالة، بيروت، دمشق، الطبعة الأولى، ١٤٠١هـ.

٢٢- **السيرة النبوية**، عبدالملك بن هشام ت٢١٨هـ، تحقيق مصطفى السقا وآخرين، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

٢٣- **شرح صحيح مسلم**، يحيى بن شرف النووي ت٦٧٦هـ، تحقيق عبدالله أبوزينة، كتاب الشعب.

٢٤- **صفة النفاق وذم المنافقين**، أبوبكر جعفر بن محمد الفريابي، ت٣٠١هـ، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الثانية.

٢٥- **طريق الهجرتين**، ابن القيم محمد بن أبي بكر، ت٧٥١هـ، المكتبة السلفية، القاهرة.

٢٦- **العجاب في بيان الأسباب**، أحمد بن علي بن حجر العسقلاني ت٨٥٢هـ، تحقيق عبدالحكيم

الأنيس، دار ابن الجوزي، المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ.

٢٧- **فتح الباري بشرح صحيح البخاري**، أحمد بن علي بن حجر العسقلاني ت٨٥٢هـ، دار المعرفة، بيروت.

٢٨- **فتح القدير**، تفسير الشوكاني، محمد بن علي بن محمد الشوكاني ت١٢٥٠هـ، دار المعرفة، بيروت.

٢٩- **فتح المجيد في شرح كتاب التوحيد**، عبدالرحمن بن حسن آل الشيخ ت١٢٨٥هـ، تحقيق عبدالقادر الأرناؤوط، مكتبة دار البيان، بيروت، دمشق، الطبعة الأولى، ١٤٠٢هـ.

٣٠- **الفرق بين الفرق**، عبدالقاهر بن طاهر البغدادي، ت٤٢٩هـ، تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد، دار المعرفة، بيروت.

٣١- **الفصل في الملل والأهواء والنحل**، ابن حزم الظاهري، أبومحمد علي بن أحمد ت٤٥٦هـ، تحقيق د. محمد إبراهيم نصر، ود. عبدالرحمن عميرة، دار الجيل، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤١٦هـ.

٣٢- **القاموس المحيط**، محمد بن يعقوب الفيروزآبادي ت٨١٧هـ، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، ١٤٠٦هـ.

٣٣- **القول المفيد على كتاب التوحيد**، محمد بن صالح العثيمين، دار العاصمة، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ.

٣٤- **لباب النقول في أسباب النزول**، عبدالرحمن بن أبي بكر السيوطي ت٩١١هـ، دار إحياء العلوم، بيروت، الطبعة الرابعة، ١٤٠٣هـ.

٣٥- **لسان العرب**، محمد بن مكرم ابن منظور، ت٧١١هـ، تحقيق عبدالله الكبير وآخرين، دار المعارف، مصر.

٣٦- **مجمع الزوائد ومنبع الفوائد**، علي بن أبي بكر الهيثمي ت٨٠٧هـ، مؤسسة المعارف، بيروت، ١٤٠٦هـ.

٣٧- **مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية**، أحمد بن عبدالحليم ت٧٢٨هـ، جمعها عبدالرحمن ابن محمد القاسم، مكتبة ابن تيمية، الكتب السلفية.

٣٨- **مختصر منهاج السنة النبوية**، لابن تيمية أحمد بن عبدالحليم ت٧٢٨هـ، اختصره د. عبدالله الغنيمان، دار لينة، دمنهور، الطبعة الثانية، ١٤١٥هـ.

٣٩- **مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين**، محمد بن أبي بكر ابن القيم ت٧٥١هـ، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٣هـ.

٤٠- **المستدرك**، محمد بن عبدالله الحاكم ت٤٠٥هـ، دار المعرفة، بيروت.

٤١- **مسند الطيالسي**، سليمان بن داود الطيالسي ت٢٠٤هـ، دار المعرفة، بيروت.

٤٢- **المسند**، أحمد بن حنبل ت٢٤١هـ، المكتب الإسلامي، بيروت، دمشق، الطبعة الخامسة، ١٤٠٥هـ.

٤٣- **المطالب العالية في زوائد المسانيد الثمانية**، ابن حجر العسقلاني أحمد بن علي ت٨٥٢هـ، تحقيق حبيب الرحمان الأعظمي، دار المعرفة، بيروت.

٤٤- **معالم التنزيل**، تفسير البغوي، أبومحمد الحسين بن مسعود البغوي ت٥١٦هـ، تحقيق خالد العك ومروان سوار، دار المعرفة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٦هـ.

٤٥- **المعجم الكبير**، سليمان بن أحمد الطبراني ت٣٦٠هـ، تحقيق حمدي السلفي، الطبعة الثانية.

٤٦- **معجم مقاييس اللغة** لأبي الحسين ابن فارس ت٣٩٥هـ، تحقيق عبدالسلام هارون، دار الجيل، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ.

٤٧- **الملل والنحل**، محمد بن عبدالكريم الشهرستاني ت٥٤٨هـ، تحقيق محمد كيلاني، دار المعرفة، بيروت، ١٤٠٠هـ.

٤٨- **النفاق وأثره في حياة الأمة**، عادل بن علي الشدي، دار الوطن، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٢٤هـ.

٤٩- **النهاية في غريب الحديث والأثر**، مبارك بن محمد بن الأثير الجزري ت٦٠٦هـ، تحقيق محمود الطناحي وطاهر الزاوي، نشر أنصار السنة المحمدية، باكستان.

* * *

